الفصل الثانى

أولاد حارتنا

«الرواية فى صفحات»

تمهيد:

ليس هذا تلخيصا للرواية، فهى رواية لا تقبل التلخيص، وأعتقد أن كل محاولة لتلخيصها سوف تبوء بالفشل، لأن الرواية وإن كانت تدور فى نطاق إحدى الحارات المصرية التى تقع قريبة من حىّ الحسين، إلا أنها فى الواقع تمتد بآفاقها لتشمل العالم بأسره، بكل ما يثور فيه من مشاكل، ومن صراعات، ثم إنها تمتد فى زمانها لتشمل تاريخ البشرية بكل عصورها وأزمنتها. كما أنها بأحداثها، وتواليها وتتابعها تتسع لكل ما عرفناه من واقع مادى، ومن أحداث جارية، ومن مواقع مشهورة، ثم إن الصراع يدور فيها ليس حول شئون الحياة وحدها، بل يشمل تاريخ الفكر الإنسانى منذ طفولته وعبر نزعاته المختلفة. رواية بهذا الامتداد والاتساع، ورحابة الأفق وضخامة ما تقوم عليه من أفكار.. يتعذر على الكاتب أن يعرض لها بالتلخيص، أو يحاول أن يعرض موجزا لها، أو عرضا لأحداثها. وبخاصة لأن وراء كل حدث فكرة، ولكل واقعة مغزى بعيدا، يتجاوز واقعه القريب بكثير.

والأكثر مدعاة إلى الدهشة فى هذه الرواية أنها تبدو بسيطة فى أحداثها، قريبة فيما تقدمه من أشخاص، سلسلة فيما تعرضه من توالى الأحداث، ولكن ما إن يطيل القارئ الفكر فيما تعنيه تلك الأحداث، وفيما يعبر عنه أولئك الأشخاص، وفيما ينطقون به من كلام أو يقومون به من تصرّفات وأفعال، حتى يدرك أنه بإزاء عالم آخر، رحب فسيح، وأن ما يقرأ من وقائع أو أحداث، ما هو إلا رمز لما وراءه من أفكار وآراء.

حتى إنه ليمكن القول إن هذه الرواية إنما تعبّر عن كل ما يمكن أن يقع من صراعات أو يدور من معارك سواء على المستوى الفردى أو الجماعى، الوطنى أو الدولى، المحلى أو العالمى.. كل تلك العوالم والمجالات تجد التعبير عنها فى رواية «أولاد حارتنا».

فكيف يمكن لنا إذن أن نعرض تلك الرواية فى صفحات؟

لقد استبعدنا فكرة التلخيص، وإن كان ذلك لن يمنعنا من أن نورد الأحداث الرئيسية، وأن نعرض للأشخاص الأساسيين – لأن ذلك هو قوام الرواية وعماد بنائها – ولكننا مع ذلك سوف نكتفى بإشارات موجزة للتعبير عن الحدث أو وصف الشخصية.

ومن هنا فإن ما نعرضه لا يعطى صورة كاملة للرواية، ولا ملخصا وافيا لأحداثها، ولا يرسم سمات شخصياتها، وإنما يكتفى فى كل ذلك بمجرد الإشارة، فيكتفى بالإيماء دون التفصيل، وبالتلميح دون التصريح.. حيث إن الهدف مما نختاره ونقدمه هو مجرد بيان الأعمدة التى تقوم عليها «الرواية»، وما تودّ أن تبسطه من أفكار، وتقدمه من رؤى وآراء، ليس بالنسبة للحارة المصرية أو للواقع المصرى فحسب، بل بالنسبة للبشرية جمعاء.

ويهمنى مصارحتكم بأن تلك كانت مهمة فى غاية الصعوبة، ومنتهى المشقة وبخاصة وأن المدقق فى الرواية يجد أن كلماتها قد وزنت بميزان الذهب، فليس فيها وصف زائد، ولا لفظ يعتبر حشوا أو تكرارا لمعنى سابق، وكذلك أحداثها رُويت فى دقة وتتابعت فى سلاسة وإتقان، ونمت نموا طبيعيا وتصاعدت فى مسارها تصاعدا طبيعيا منطقيا، وكأنها الواقع الحقيقى بعد أن أعيدت صياغته على نحو نقّاه من الزوائد، وطهّره من كل ما قد يبدو منافيا لما كان يجب أن يمضى به المسار.

سأمضى مع الأحداث ومع الأشخاص مستعرضا كل ما وقع وكل ما قيل، دون إضافة من قبلى، أو تعليق أو تحليل منىٍّ أو من سواى فى محاولة صادقة لبيان صورة كاملة عما أراد المؤلف قوله، وعما عمد إلى روايته وبسطه.. وسوف أجيز لنفسى بعد هذه المرحلة أن أعرض بالتفسير أو بالتحليل سواء لما ورد فى الرواية – مما عرضنا على القارئ – أو مما ورد على ألسنة الآخرين مما سنطرحه بالتفصيل.

وكل ما نأمل الوصول إليه، هو أن نعطى القارئ صورة عن هذه الرواية وعن الأحداث التى صاحبت ظهورها، ولاحقت مؤلفها بالدفاع عنه حينا، وبالهجوم عليه فى كثير من الأحيان.. ولعلنا أن نوفق إلى أن نقدم الصورة الصادقة وأن نكشف عن الحقيقة الدفينة – ما واتانا الجهد، وحالفنا التوفيق..

وفى عرضنا لأحداث الرواية سوف نلتزم نفس الترتيب الذى التزمه المؤلف فى كتابة روايته..

وقد سار الكاتب فى روايته منتهجا المنهج التالى:

• افتتاحيه – «أدهم» – «جبل» – «رفاعة» – «قاسم» – «عرفة».

وكما ذكرنا فسوف نلتزم فى عرضنا للرواية بذات الترتيب، وإن كنا نودّ أن نؤكد أن ما سوف نقدمه لن يرقى إلى مستوى الأصل بحال من الأحوال، بل إن كل مهمته هو أن يغرى من لم يسبق له قراءتها بالمبادرة إليها، يطالعها فى متعة، كما تدعو كل من سبقت له قراءتها أن يعاود قراءة الأصل، والحياة فى رحابه.. بما تحققه من متعة روحية، ونشاط فكرى، يدفعه إلى أعمق أعماق الحياة.

* * *

الافتتاحية:

الرواية – وإن رويت على لسان الغائب – إلا أن «الافتتاحية» وردت على لسان من يذكر أنه كاتبها.. ويقدم لذلك بقوله إنه شهد العهد الأخير من حياة «حارتنا» وعاصر الأحداث التى دفع بها إلى الوجود «عرفة» ابن «حارتنا» البار، وأنه إلى أحد أصحاب «عرفة» يرجع الفضل فى تسجيل حكايات حارتنا على يدىْ الراوى الذى كان من القلة التى تعرف الكتابة. وقد نشط إلى تنفيذ الفكرة اقتناعا بوجاهتها من ناحية، وحبا فيمن اقترحها من ناحية أخرى.

ويقدّم الراوى الحارة بأن على رأسها البيت الكبير: بيت جدنا، جميعنا من صلبه ونحن مستحقو أوقافه. فلماذا نجوع؟ وكيف نضام؟.. ويذكر عن الجد قوله: «وجدنا هذا لغز من الألغاز، عمّر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره، واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد، فلم يره منذ اعتزاله أحد.. كان يدعى «الجبلاوى»، وباسمه سميت حارتنا، وهو صاحب أوقافها، وكل قائم فوق أرضها. يقال عنه إنه هو أصل حارتنا، وحارتنا أصل مصر أم الدنيا».

ثم تسأل: أليس من الغريب أن يختفى هو فى هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن فى التراب؟!.. على أن أحدا لم يره منذ اعتزاله، ولم يكن هذا بذى بال عند أكثر الناس، فلم يهتموا منذ بادئ الأمر إلا بأوقافه وبشروطه العشرة التى كثر القيل والقال عنها..

«ومـــن هنا ولد النزاع فى حارتنا منذ وُلدت، ومضى خطره يســتفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد، ولذلك فليس أدعى إلى السخرية من الإشارة إلى صلة القربى التى تجمع بين أبناء حارتنا».

وتختم الافتتاحية بقوله أنه ســوف يكتب عــن «حارتنا العجيبة» كيف وجدت؟ وماذا كان من أمرها؟ ومن هم أولاد حارتنا؟ بادئا حديثه - بلسان الغائب - عن «الجبلاوى»..!

(١)
أدهــــم

«الجبــلاوى» هو صاحب «البيت الكبير» وأب لكل من فيه من رجال ونســاء، وله فى البيــت أكثر من زوجة، وكما أنه هو صاحب البيت فهو صاحب «الوقف» والمتصرف فيه، هو فى بيته كالأسطورة يتصرف كما يشاء، ويصدر أوامره دون مشورة من أحد، فهو صاحب السلطة العليا، والكلمة المطاعة.

دعا ذات يوم أولاده الرجال، ليعلن إليهم أنه آن له أن يعهد بإدارة الوقف إلى أحدهم، وقــد اختار لتلك المهمة أصغرهم وهو «أدهم»، فما كان من أكبر أولاده وهو «إدريس» إلا أن نهض يبدى اعتراضه، وأنه الأحق بذلك، وقد صدَّه أبوه، ولم يول اعتراضاته أى اهتمام، غــير أن «إدريس» أصر علــى موقفه، وعلى أنه هو الأحق، فما كان من «الجبلاوى» إلا أن طــرده خارج «البيــت الكبير» إلى الصحراء أو الخلاء دون أن يعــدل عن قراره. فكان ذلك درسا لسائر الأبناء بالنزول على ما يراه السيد الأكبر، فليس لأحد أن يناقشه، وهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة بلا معقب عليها.

خرج «إدريس» إلى حياة التشــرد والشــقاء ليعيش فى حرمان متصل، إلى أن لحقت به إحدى نساء البيت جاءته مطرودة حيث ظهرت عليها علامات الحمل الذى كان «إدريس» قــد أودعها «نطفته» تلقاها غــير مرحب بها، ولكنه - مع ذلك - أتاح لها أن ترافقه فى حياة الشقاء التى يحياها..

* * *

أمـا «أدهم» فقـد كان يقضى معظم وقته فى الحديقة، يعيش فى حلم متصل، ينفخ فى الناى، سعيدا برفقة الطير، وتفتُّح الأزهار، متفيئا خلال ما يملأ الحديقة من أشجار.. إلى أن أحس ذات يوم بنصفه الآخر ينشـق عنه ظله الذى كان يتبعه عند سـيره.. وكانت تلك هى «أميمة» التى ارتاح إليها، وسـعد بها، وأذن له أبوه فى الزواج منها، فكان فى ذلك تمام سعده، واكتمال نشوته..

غير أن «أدهم» إذ تصل إليه أنباء «إدريس» السـيئة، فإن نفسـه تتقطّع حسـرات، ثم يضيـق بعجـزه عن أن يمدّله يد العون، وأنه لا يملك سـوى أن يرثى لحاله.. إلى أن وجد «إدريس» – ذات يوم – أمامه، دخل عليه متسـللا ضمن طابور مسـتأجرى الأحكار إذ كان يقف فى نهاية الطابور فما إن يسـمع أخوه اسمه حتى يفاجئه ولكنه يلقاه شـخصا آخـر أكثـر هدوءا، وبعدا عن العنف والشراسـة، ويتبادل الأخـوان رقيق العواطف إلى أن يصـارح «إدريـس» أخاه بمقصده الحقيقى، وهو أن يتسـلل «أدهم» إلى مخدع أبيه – فى غيبته، ويسمح لنفسه بأن يتلصص على ما ضمنُه أبوه حجة الوقف من مصير خطَّه فحددَّه «لإدريس»، وهل قرر حرمانه من كل شـئ.. ففى وقوفه على حقيقة الأمر راحة له.. وراح يغريه بأنه بذلك يخفِّف عن أخيه، دون أن يكون قد ارتكب ما يلام عليه، إلا أن «أدهم» يبدو مترددا، ويودِّع «إدريس» دون أن يعده بأن يحقق له طلبه..!

غـير أن «أميمة» ماتزال «بأدهم» تغريه بأن يسـتجيب لما طلبه منه «إدريس» حتى يخضع آخر الأمر، فيتسـلل فى الفجر – بعد خروج أبيه إلى الحديقة – ولكنه ما إن يصـل إلى مكان الصندوق حتى يفاجأ بأبيه على رأسـه، فتكـون بذلك نهايته، حيث يخرج هو وزوجه مطرودين من «البيت الكبير» – ليتلقاهما «إدريس» شـامتا سـاخرا، ولكنـه كان المصـير المحتوم طرد «أدهم» من البيت لعصيانه أمر أبيه ومحاولته الوقوف على ما يحجبه من أسرار..

ولا يجد «أدهم» أمامه سوى حياة الخلاء والشقاء فاستبدل بالبيت الكبير كوخا حقيرا، وبالحيـاة الناعمة أخرى شـقية لا ينال فيها طعامه وطعام زوجه إلا بشـق النفس، وفائق الجهد، فضلا عن تجرّعه سـخرية وشماتة «إدريس».. ولكن حياة الشقاء والحرمان تمضى

ويعقب «إدريس» «هند» ويرزق «أدهم» بـ «قدرى وهمّام» اللذين يسعيان فى الحياة راعيين للأغنـــام. وإن كان كلاهمـــا نقيضا للآخر فى الأخلاق والطباع، فبقدر ما كان «قدرى» عنيفا وقاسيا لا تهمه سوى نفسه وتطلعاته، كان «همّام» هادئ النفس، يتميز بالقناعة والرضى. وكبرت «هند» وازدادت ملاحة، فكان أن اتصلت أسبابها فى خفية بأسباب «قدرى» على مرأى ومسمع من «همّام» ودون علم من «إدريس» أو شقيقه.

وذات يوم ينفتح باب «البيت الكبير»، ليشاهد «أدهم» و«إدريس» «عم كريم» – حارس البيت – خارجا منه وقاصدا كوخيهما، فيتنبه الجميع ويتلهفون على معرفة مقصده الذى لم يكن سوى كوخ «أدهم»، ليبلغ رسالة محددة: أن سيده يطلب حضور «همّام» إليه..!

ويثـــير الطلـــب غير المتوقع مشـــاعر عديـــدة اختلطت فيها الغيرة بالحســـد، ولم يترك «إدريس» ابن أخيه يتجه وحده، بل حرص على أن يصحبه كما تصحبهما «هند»، وينفتح بـــاب البيت الكبير ليؤذن «لهمّـــام» وحده بالدخول، وحينما يهم الآخـــرون بأن يتبعوه.. يتقدمهـــم «قدرى» و«هند».. فهنا يعلو الصوت المعـــروف يقول فى صرامة: «إذهبا بعاركما أيها الملوثان».. ويغلق الباب على «همّام» وحده الذى يســـتقبله الجد الكبير.. ليخبره بأنه قد اختاره دون ســـواه لإدارة الوقف والعيش فى «البيـــت الكبير» وحينما حاول «همّام» أن يتشفع لأبويه يردّه الجد فى صرامة، ويطلب إليه أن يعود إليهما ليخبرهما ثم يعود. ولكن رحلـــة الرجـــوع لا تنتهى إلى خير، إذ تراءى «لهمّام» ألا يعود – رغم أن أبويه كانا يلحّان عليه فى العودة، وانطلق مع أخيه إلى ما كانا عليه من رعى الأغنام. غير أن روح الشر التى تتملـــك «قـــدرى» ثارت به فقتل أخاه – «همّاما» – مما كان له بالغ الآثر لدى الأبوين وفى حياة الأســـرة جميعها.. وتمضى الأيام ســـيئة بالجميع إلى أن يدرك الموت «أدهم»، ويأتيه – وهو فى ســـكرات الموت – أبوه «الجبلاوى» ليطمئنه إلى أن الوقف ســـيكون لذريته، وأن عليه ألاّ يجهد نفســـه، بل يركن إلى النوم.. وبذلك ودع «أدهم» الحياة وهو راض، لتلحق بـــه «أميمة»، ثم «إدريس».. ويمضى زمان يعود بعده «قدرى» ومعه «هند» وأطفال كثيرون، وينشـــر العمران بفضل أموال الوقف، وبفضلها أيضا ارتســـمت صفحة الوجود فى «حارتنا» – و«من هؤلاء وأولئك جاء أبناء حارتنا»..!

* * *

(٢)

جبـــل

وحارتنـــا: «حـــارة الجبلاوى» أطول حارة فى المنطقة.. ولـــن تتم الصورة إلا بذكر بيت ناظر الوقف على رأس الصف الأيمن من المســـاكن، وبيت الفتوة على رأس الصف الأيســـر قبالتـــه. وكان «البيت الكبـــير» قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمـــه المقربين. ومات أبناء «الجبلاوى» مبكرين، فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا فى البيت الكبير إلا «الأفندى» ناظـــر الوقف فى ذلك الوقت. أما عامة أهل الحارة، فمنهم البائع الجوال، ومنهم صاحب الدكان أو القهوة وكثيرون منهم متسولون. وكان طابع حارتنا الزحام والضجيج – والأطفال حفاة، بل وأشـــباه عرايا.. وتكتظ مداخل البيوت بالنســـاء.. يتبادلن الأحاديث والنكات، وعند الضرورة الشتائم والسباب. وما إن يجد شاب فى نفسه جرأة أو فى عضلاته قوة حتى يندفع إلى التحرش بالآمنين والاعتداء على المسالمين فيفرض نفسه فتوة على حىّ من أحياء الحارة، يأخذ الإتاوات، ويعيش ولا عمل له إلا الفتونة. وكان «زقلط» أحد هؤلاء الفتوات، فخاض معارك كثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع، وصار فتوة الحارة كلها، وفرض الإتـــاوات علـــى الفتوات جميعا، ورأى «الأفندى» «ناظر» الوقـــف أنه بحاجة إلى مثل هذا الرجـــل ليكـــون أداته فى تنفيـــذ أوامره. وفى أن يدفع عنه ما قد يتهدده من شـــرّ، فقرّبه ورتـــب له راتبا من ريع الوقف، فأقام «زقلط» فى بيته المقابل لبيت «الناظر». واســـتحكم ســـلطانه.. وكان «الجبلاوى» قد وعد «أدهم» بأن يكون الوقف لخير ذريته وشيدت بالفعل الربـــوع، ووزعـــت الخيرات. وحظى الناس بفترة من العيش الســـعيد. إلا أنه بعد ما أغلق الجد بابه، واعتزل الدنيا احتذى «الناظر» مثاله الطيب حينا، ثم لعب الطمع بقلبه، فعمدا إلى الاســـتئثار بالريع.. أما شـــعراء المقاهى المنتشرة فى حارتنا فقد ظلوا لا يروون إلا عهود البطولات متجنبين الجهر بما يحرج مراكز الســـادة. بل وكانـــوا يتغنون بفضائل «الناظر» والفتوات، بينما أهل الحارة لا ينالون من خيرات الوقف ســـوى الحسرات، ولا يلقون من الفتوات شيئا غير الأذى والإهانات، ونحن صابرون نتطلع إلى مستقبل لا ندرى متى يجئ حينما نمضى إلى البيت الكبير، لنلتقى بالجدّ المنقطع عنا دون أن يتيح لنا رؤيا أو لقاء.

وكانت الحارة التى تلى بيت «الناظر» هى حارة «آل حمدان».. أكبر الحوارى وأجلها، وأهلها من سلالة «أدهم» ولكنهم لا ينالون شيئا من خيرات الوقف و«حمدان» صاحب المقهى الكبير يقول فى صراحة: «آل حمدان» ضاع حقهم، ضاق بهم الحال، يعيشون فى كرب وفقر.. وفكروا.. ماذا يفعلون – قال «حمدان» نلجأ إلى «الناظر» – وفكروا كيف يكون اللقاء، قال «حمدان» إنه لو ذهب وحيدا فقتله شئ يسير، ولكن قتل «آل حمدان» أمر لا يقدرون عليه. وكان أن تجمهر «آل حمدان» أمام بيت «الأفندى» و«الناظر». طرق «حمدان» الباب ففتح بعد قليل وفاجأهم البواب بسؤاله: ماذا تريدون؟ فكان الجواب: مقابلة «الناظر».. وخرج إليهم «الأفندى» بنفسه متجهم الوجه، بادى الغضب. ثم توجه بالسؤال إلى «حمدان» عمن يكون هؤلاء؟ فأجابه: «آل حمدان» يا حضرة «الناظر» ونحن أسرة واحدة: جميعنا أبناء «أدهم» و«أميمة».. وراح يشكوا إليه ما يعانون من كرب وسوء معاملة فهل يليق ذلك بأبناء «الجبلاوى» مستحقى وقفه؟! فما كان من «الناظر» إلا أن صاح فيهم بأن هذا وقف جده وليست لهم به صلة وما لديهم حجة.. ولم يضيع وقته فى مناقشاتهم، بل استجاب لما اقترحته زوجه «هدى هانم» من أن يدعهم ويدخل، ويتركهم ينعون حالهم ويستغيثون «بالجبلاوى» ألاّ يتركهم تحت رحمة من لارحمة لديهم.. ثم لم ينس أن يأمرهم بأن يخرجوا بلا تردد.. فلم يسع «حمدان» إلا أن يستجيب وهو يرفع رأسه.. ويصيح بقوة: يا «جبلاوى».

ولم يكن أمام «الأفندى» إلا أن يستعين «بزقلط» استجابة لمطلب «هدى هانم» وإن كان قد تساءل: عما يكون أمر «جبل»، فقالت «الهانم» بثقة وطمأنينة: إنه ربيبنا، بل إنه لم يعرف من الدنيا إلا بيتنا. اطمئن من ناحيته..

وجاء «زقلط»، وأعلن أنه «سيدوس» أولئك المتردِّين بقدميه كالصراصير. وسمعه «جبل» وهو يدخل البهو.. وحيًا الجميع بأدب وجلس يتكلم عما أنجزه فى يومه من أعمال.. ولما سألته «الهانم» عن رأيه فيما حدث كان جوابه: سيدتى إنى ربيب نعمتك، ولكنى لا أدرى ماذا أقول، فلست إلا أحد أبناء «حمدان».. وإنكار الحقائق لا يغيرها. وقام «الأفندى» نافذ الصبر، وقام «زقلط» باسما، وإذا «بالهانم» تقول له: لا تجاوز المعقول يا معلم «زقلط»، نريد تأديبهم لا إبادتهم..

وكانت «هدى هانم» قد سألت «جبل» عما إذا كان لديه ما يقوله، فلم يزد عن قوله: «الأمر منكم وإليكم يا سيدتى».. فلما استوضحته أكثر اضطر إلى أن يصرح بقوله: «إنى ربيب نعمتك، ولكنى.. لست إلا أحد أبناء حمدان».. واستمر النقاش، وتدخل «الأفندى» فيه مؤنبا مكررا تحقيره «لآل حمدان»، مما اضطر «جبل» إلى أن يقول: «إننا أبناء «أدهم» ومازال جدّنا حيا أطال الله بقاءه..». لينهى «الأفندى» هذا الحوار بأمر حاسم يوجهه إلى «جبل»: «إذهب إلى عملك ولا تفكر فى سواه».. وغادر «جبل» البهو.. وقد أحزنه ما يدبر «لآل حمدان» من شر.. أحزنه أكثر مما أسخطه سلوكهم الجرىء، وكم ود أن يدفع عنهم الشر لولا إشفاق من إغضاب البيت الذى آواه، ورباه، وتبنّاه.. فمنذ عشرين عاما رأت «الهانم» طفلا عاريا يستحم فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار.. فمال قلبها الذى حرقه العقم من نعمة الأمومة إليه. أرسلت من حمله إليها وهو يبكى خائفا.. وهكذا نشأ «جبل» فى بيت «الناظر»، ينعم بأسعد أمومة فى الحارة وأدخل الكتاب فتعلّم القراءة والكتابة، ولما بلغ رشده ولاّه «الأفندى» ولاية الوقف.. وسار الناس يدعونه «حضرة الوكيل» وإن كان ذلك لم يمنع عنه تساؤله فى حيرة: «وآل حمدان»؟

وما كان أسرع ما اندفع «زقلط» فى عملية التأديب.. كانت البداية مقهى «حمدان» حيث قصده، فملأ الجو شتائم وألفاظا سيئة أتبعها بتحطيم لكل شئ.. وانتهى إلى أن صاح بصوت كالرعد: «كل واحد يلزم بيته» فبادر إلى تنفيذ الأمر كل شخص من «آل حمدان» أو من غيرهم.. ثم أتبع ذلك بأمر أخير «لا يغادر رجل من «آل حمدان» داره إلاّ ضرب».. وطلع النهار فلم يغادر الربوع رجل من «آل حمدان».

وكم آلم ذلك «جبلا» وأشقاه! وأحس برغبة قاهرة فى الخلوّ بنفسه التى زلزلها ما حاق «بآل حمدان»، وقد رأى أن جميع الأمور تجرى فى الحارة على سنة الإرهاب.. فالحارة لم تعرف يوما الغذاقة-أو-السلام.. منذ طرد «أدهم» و«أميمة» من البيت الكبير.. والظلم تشتد كثافة ظلماته.. فمضى إلى الخلاء لعل فى الخلاء ما يسكت الأصوات التى تثيره وتعذّبه.. فحتى متى تسكت يا «جبلاوى»؟ ورفع رأسه إلى السماء فوجدها صامتة هادئة ناعسة. وفجأه سمع «جبل» صوتا غليظا يصيح من قريب أن استيقظ.. فنهض قائما.. ثم اتجه نحو صخرة «هند» إلى الجنوب فرأى رجلا يركض فى رعب وآخر يطارده ويوشك أن يلحق به. وأمعن النظر فعرف فى الهارب «دعبس» وفى المطارد «قدْرة» فتوّة حىّ «حمدان».. ومضى «جبل» يراقب المطاردة وما لبث «قدْرة» أن أدرك «دعبس»، فقبض بيده على منكبيه، وتوقف الإثنان عن العدو وصاح

«قدرْة» فى «دعبس»: كيف تجرؤ على مغادرة جحرك..؟ وراح «دعبس» يتملص من يد القابض عليه ويحاول أن يفلت من قبضته دون جدوى.. وحانت من «دعبس» نظرة نحو موقف «جبل» فاستنجد به، «قدْرة» يوجّه إليه شتائمه ويهدده بأن لا مغيث له. وجد «جبل» نفسه يتقدم من المتصارعين، وطلب فى هدوء من «قدرْة» أن يترفق بالرجل.. استهان «قدْرة» بهذا الطلب وحدّج «جبلا» بنظرة باردة قائلا أنه يعرف ما ينبغى أن يفعله، وما دفع «دعبس» إلا «قدرْة» المحتوم، وراح يشد على منكبه حتى إن «دعبس» راح يئن أنينا مسموعا، فما زاد ذلك «قدرْة» إلاّ تهجما وعدوانا بل وانهال عليه ركلا وصفعا حتى انكفأ «دعبس» على وجهه ليبرك فوقه «قدْرة» يكيل له الضربات.. مما أدى إلى اشتعال الغضب فى دماء «جبل» فصاح «بقدرْة» يأمره بأن يتركه فما كان من «قدرْة» إلا أن كف بالفعل، ولكنه اتجه إلى «جبل» مبديا دهشته من طلبه إليه أن يترك «دعبس»، بينما أن ما يفعله ما هو إلا نزول على أمر حضرة «الناظر» بتأديب «آل حمدان».. فما كان من «جبل» إلا أن أصر على طلبه إلى «قدرْة» بأن يترك «دعبس».. فانتفض هذا الأخير ليهدد «جبل» بأن خدمته فى بيت «الناظر» لن تحميه إذا أراد «قدرْة» محاسبته. وكانت تلك الكلمة هى التى أثارت «جبلا» ثورته الهائلة فانقض على «قدرْة» كمن فقد وعيه فركله، وألقاه جانبا.. فوثب «قدرْة» يتناول نبوته من على الأرض ويرفعه بخفة قاصدا توجيه ضربة قاضية إلى «جبل»، ولكن «جبلا» بادره بضربة فى بطنه من يد قوية، فترنحّ متألما.. وخطف «جبل» النبوت.. فأصاب به رأس «قدرْة» الذى تعالى صراخه، ودار حول نفسه ثم سقط على الأرض والدم يتفجر من جبينه فى غزارة.. وانحنى فوقه فعدله على ظهره ثم تمتم بأنه قد أغمى عليه.. وراح يهزه برفق دون أن يتمكن من إفاقته.. فاقترب «دعبس» وأشعل عودا من الثقاب.. ثم وقف وهو يهمس: «إنه ميت» — فاقشعر بدن «جبل» وهو لا يصدق.. بينما «دعبس» يرى الأمر هينا.. فكم ضرب! وكم قتل!.. ويبدى «جبل» أنه لم يكن يقصد أو يريد القتل..! وكيف ينقلب قاتلا من أول ضربه؟ ولكنّ «دعبس» نبه «جبلا» إلى أن الأمر الهام هو أن يتعاونا لدفنه ومعه نبوته.. وما لبث «جبل» أن انضم إلى «دعبس» فى هذه المهمة بقلب كئيب، وواصلا العمل حتى تمكنا من دفن القتيل ومعه أيضا «النبوت».

ويختم الراوى روايته لهذا المشهد بقوله إن «جبلا» لما رفع رأسه رأى الليل قد أخفى الدنيا وما عليها، فتنهد من الأعماق وهو يكبت نزوعا نحو البكاء.

* * *

وكان من الطبيعى أن يثير اختفاء «قدرّة» التساؤلات والتكهنات. أين ذهب؟ كأن الأرض انشقت وابتلعته؟ حامت الظنون حول «آل حمدان»، ففتشت بيوتهم دون أن يسفر التفتيش عن شئ.. لم تعد المسألة صراعا بين «آل حمدان» و«الناظر» بقدر ما صارت أمرا متصلا بكرامة الفتوات، «فقدرّة» لم يكن يهمهم لذاته؛ بل لم يكن أحد منهم يحبه، ولم يكن أحد منهم يحب الآخر قط، ولكن جمعتهم رغبة واحدة فى الإرهاب والذود عن الفتونة. وتساءلوا: ما العمل؟ قال «زقلط»: ينبغى أن أرجع إلى «الناظر».

وعندما ساق «زقلط» الخبر إلى «الناظر» على أن «آل حمدان» قتلوا فتوتهم – وكان جالسا وإلى يمينه «هدى هانم» – زوجه – وإلى يمينها «جبل» – كان جوابه أن أنباء عن اختفائه قد بلغته.. ولكنه تساءل: هل يئستم تماما من العثور عليه؟ وقالت «الهانم»: لو صحّ أنه قتل لكان حدثا خطيرا.. وكان جواب «زقلط» أن ذلك يقتضى عقابا شاملا وإلا ساءت العواقب.. وخرج «جبل» عن صمته قائلا: لعلها جريمة مزعومة لم تقع.. وإلا فهل ثمة دليل على مقتله.. فرجال «حمدان» فى بيوتهم مسجونون. فكان جواب «زقلط» أن «جبلا» لا يهمه إلا تبرئة أهله.. واحتد «جبل» وهو يقول إن ما يهمه هو الحقّ، وإن كل ما يهم «زقلط» هو الحصول على إذن لإحداث مذبحة فى قوم مسالمين.. فما كان من «زقلط» إلا أن واجهه بقوله بأن له عذرا فى دفاعه عن المجرمين مادام منهم.. ثم طلب من «الناظر» أن يأذن له فى تأديب الجناه.. وهنا اتجه «جبل» إلى «الهانم» قائلا إنه فى هذه الحالة سيجد نفسه مضطرا إلى الانضمام لأهله، وكان ذلك يمثّل خيبة رجاء «للهانم».. التى طلبت إلى «زقلط» أن يؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر.. ولكن «الناظر» تمادت به موجة الغضب حتى بلغت قمة رأسه فهتف «بجبل»: إما أن يبقى معهم كواحد منهم، وإما أن يذهب إلى أهله.. فأثار هذا القول «جبلا».. فهتف أنه ذاهب، وبالفعل نهض، وسار بخطوات ثابتة نحو باب البهو، وحاولت «الهانم» أن تمنعه ولكن ذراع «الناظر» حالت دون تحركها.. وسرعان ما اختفى «جبل».. ولم يأذن «الناظر» – مع ذلك – للفتوة بما طلب، وكان كل ما أنهى به الحديث أنهما سيعاودان الحديث مرة أخرى.

* * *

وقد مضى «جبل» لفوره، مغادرا البيت، وقد تمثلت له مأساة «أدهم» عندما غادر البيت الكبير.. وقصد لتوّه ربعا كبيرا من ربوع «آل حمدان» وطرقه.. ومضى يطرق الباب حتى فتحت نوافذ الربع. وأطلت رءوس كثيرة.. وقال «جبل» بهدوء: افتح الباب يا «عمّ حمدان». وفتح باب الربع فدخل «جبل» مستقبلا جوا رطبا، وهواء غريب الرائحة، واستقبله أهله بالعناق واختلطت الكلمات الطيبات.. ولكن قطع الترحيب عليهم جعجعة شجار آتية من أقصى الحوش.. أحد طرفيها «دعبس» الذى يتهم آخر بسرقته.. فصاح به «جبل» ألا يقضى بغير دليل. إلا أن «دعبس» أصر على تأديب السارق المتهم. ووثب عليه فنطحه وترنّح المتهم بالسرقة وسال الدم من جبينه، ومع ذلك راح «دعبس» يكيل له الضربات فى غير مبالاه مما أثار «جبلا» وانقض عليه وقبض على عنقه بشدة، وعبثا حاول «دعبس» أن يتخلص من قبضة «جبل»، فما كان منه إلا أن تساءل: أتريد أن تقتلنى كما قتلت «قدرة»؟.. وردد الرجال أبصارهم بين الرجلين: أحقا «جبل» هو الذى قتل «قدرّة»..؟ وتقدم منه أكثر من واحد – كل يدعوه إلى استضافته واصفا إياه بأنه «سيد آل حمدان».. وشعر «جبل» بأن الهاوية التى انفتحت اليوم تحت قدميه لا قرار لها.. وأن السبيل الوحيد هو الهرب.. والخلاء واسع لايحيط به خاطر.

* * *

وتيسر الفرار «لجبل» فى الهزيع الأخير من الليل.. ومضى نحو الدرّاسة، ثم مال نحو الخلاء، متجها نحو صخرة «هند» و«قدرى»، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسعه أن يغالب النوم وفتح عينيه مع أول شعاع. فقام من فوره ليصل إلى الجبل قبل أن يعبر الخلاء عابر.. وبلغ سفح المقطم ونفسه تفيض بالأسى والوحشة فسار معه نحو الجنوب حتى بلغ سوق المقطم.. ورأى عند حافة الخلاء كوخا من الصفائح صَفّت حوله مقاعد خشبية.. فاتجه نحو مقعد خال وجلس بجسم اشتد حنينه إلى الراحة.. ومالبث أن جذب سمعه ضوضاء اشتدت حول «كشك» حنفية مياه عمومية كان الناس يتزاحمون أمامها ليملأوا أوعيتهم بالماء.. فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات ثم ندت صرخات حادة من الوسط عن فتاتين غرقتا فى لجة الزحام.. وراحتا تتراجعان لتنجوا بنفسيهما حتى خرجتا من المعترك فأقبلتا نحو مكان خال قريب من مجلسه، ووقفتا تسويان ماتشعث من شعرهما وتعيدان الخمار إلى رأسيهما ثم جلستا تتشاكيان الضعف، وقلة الحيلة.. فقام «جبل» – وقد جذبته الفتاتان – اللتان لم تقع عيناه على مثلهما فى الملاحة فى حارته ليملأ لهما

وعاءيهما وعاد إلى الفتاتين ليجدهما مشتبكتين مع بعض الشبان فى معركة كلامية فتصدّى للشبان مهددا وتحرش به أحدهم، ولكنه صرعه بضربة فى صدره، فتجمع الشبان للهجوم عليه، غير أن صوتا غريبا صاح بهم يأمرهم بأن يذهبوا عنه – وكان صاحب الصوت رجلا كهلا.. فهتفوا خجلين: «المعلم البلقيطى»؟ وسرعان ماتفرقوا.. فقال المعلم «لجبل» إنه من أهل الشهامة وما أندرهم فى أيامنا! دفع عن ابنتيه الأشرار.. وأمثاله يستحقون الحب.. وبدأ المعلم فعرّفه بنفسه إنه «البلقيطى الحاوى».. وكان «جبل» قد سمع عنه، فأضاء وجهه بنور التذكر المباغت.

وكان من الطبيعى أن يعرفه «جبل» بنفسه، وبأنه من «حارة الجبلاوى»، مما دفع بالمعلم إلى الظن بأن «جبلا» إنما حضر للفرجة على «المولد» القائم فى ذلك الوقت، ولكن «جبلا» بادر ينفى ذلك ويؤكد أنه إنما جاء يبحث عن مقام جديد بعد أن هجر حارته.. وقد حدس الرجل دواعى القتل وواجهه بها. لابد أن تكون القتل.. فهو ليس من الرعاع الذين يبعث بهم الفتوات، ولا هو من أهل السرقة.. ولم يسلّم «جبل» بشئ، فدعاه المعلم إلى فنجان قهوة فى داره، وكان ذلك مما صادف قبولا لدى «جبل» الذى مال بقلبه إلى إحدى المليحتين، فبادر قائلا «حبا وشرفا» واتخذا طريقهما إلى الدار.. وفى الطريق عرف «البلقيطى» أن «جبلا» لا مأوى له، فعرض عليه فى شهامة أن يستضيفه إذا شاء حتى يجد لنفسه مأوى، فكان جواب «جبل» الشكر والتقدير، وكان تعليق «البلقيطى» الأعجب من ذلك ففى داره تقيم الحيّات والثعابين – فكيف تضيق عن إيواء إنسان؟ وعرف «جبل» أن مضيفه يعمل حاويا وسيعرف – عنده – ومنه – كيف تستأنس الثعابين..!

* * *

ودخلا البيت.. و«البلقيطى» يتحدث عن الثعابين التى يدين لها برزقه، والتى بفضلها أقام هذا البيت. ووصلت إلى سمعهما لدى دخول البيت ملاحاة تجرى بين الشقيقتين علم منها «جبل» أن مهبط هواه اسمها «شفيقة».. ما أبدع المليحة! فى عينيها السوداوين شكر صامت، وكم يودّ لو يجد من يخبرها بأنه ما قبل هذه الضيافة الخطرة إلا من أجل عينيها السوداوين!

سأله «البلقيطى» عن عمله، فأجابه بأنه سيجد عملا.. فقال له «البلقيطى» إنه ذكىّ كالعفاريت، فهلا أدرك أنه يصلح حاويا.. يكون للرجل معين فى عجزه.. وكان كل جواب «جبل» أنه سيفكر فى ذلك على مهل..

وقبل العصر خرج الرجلان معا، فمضى «البلقيطى» إلى تجواله، وقصد «جبل» السوق للفرجة والتسوق.. وعادا مع المساء إلى البيت.. وقبل أن يخطو إلى الداخل وصل إلى سمعه نقاش محتدم.. «فشفيقة» المليحة تحذر من استضافته طالما إنه وراءه جريمة، والمليحة ترد بأنه لا يبدو عليه أنه مجرم.. ويتساءل الأب: وهل عرفته لهذا الحد يا بنت الأفاعى؟ وتكمل الشقيقة قائلة: وإلا فلماذا يهرب من النعيم؟ ويكون دفاع المليحة بأنه «ليس عجيبا أن يهرب الإنسان من حارة اشتهرت بكثرة فتواتها..» وكان تساؤل «البلقيطى» للمليحة عن مصدر القدرة التى أعانتها على معرفة الغيب، مقررا أن معاشرة الثعابين جعلته ينجب حيتين.. ومع ذلك فهو قد اتخذ قراره باستضافة الرجل مستندا إلى نظرته التى لا تخيب إلا ما بدر منه من شهامة جعلته يقرر استضافته..

وما كان «لجبل» أن يتردد فى ولوج البيت بعدما سمع.. وكأنه قد وصل إلى بر الأمان بجوار هذه الصبية الودودة الطيبة، أو إلى القوة الساحرة التى تشدّه إلى بيت هو وكر الثعابين.. يمضى إليه وهو يردد: ما أطيب الحياة إلى جوارك يا عمْ..!

* * *

وكان أمرا طبيعيا ألا يواتيه نوم، ليس فقط لما مرَّ به من أحداث، وإنما أيضا لما هو مقبل عليه من حياة مجهولة أقل ما فيها «معاشرة الثعابين والحيات».. وعندما فتح عينيه مع إشراقة الصباح رأى «البلقيطى» جالسا فى مواجهته فحيّاه بتحية الصباح، فكان جواب «البلقيطى» ردا للتحية بمثلها للمعلم «جبل» وهو يناديه بـ «من لم ينم من الليل إلا أقلهُ وهو يتقلب فى الظلام والتفاتات رأسه نحوى كالخائف! «ومضى «البلقيطى» يفسِّر له سبب خوفه أنه كان يخاف على نفسه حيث توهم أن «البلقيطى» سيقتله ويسلبه نقوده ثم يدفنه فى الخلاء.. ثم مضى ينصحه بأن الخوف شديد الإيذاء والثعبان لا يلدغ إلا عند الخوف وفيما هما يتحادثان تراءى له صوت «شفيقة» تنادى، فشعشع الصوت روحه بانبساط غير متوقع.. حلت على أثره السكينة بقلبه، وفاضت نفسه بالمودة.. ووجد نفسه يقص قصته كاملة على «البلقيطى».. الذى أثنى عليه وقال له إنه سوف يبادله صراحة بصراحة لأن من حقه أن يخبره بأنه ينتسب هو الآخر – فى الأصل – إلى حارة «الجبلاوى» ولكنه فرّ منها فى صدر الشباب ضيقا بفتواتها، بل إنه كان من «حىّ حمدان» بالذات.. وهنا حُق له

أن يطلب إلى «جبل» أن يشغل نفسه بمستقبله، وأنه يكرر له القول بأنه يصلح حاويا ماهرا.. فما إن أبدى «جبل» موافقته حيث وثب الرجل فى سرعة بهلوانية يحييه مؤكدا له أنه يحبه أكثر من أى ثعبان عنده.. ضحك «جبل» فى نشوة طفل، وشد على يد الرجل، ثم قال باندفاع لم تجد حيلة فى منعه: «يامعلم: «جبل» يطلب القرب منك.. فضحك «البلقيطى» وهو يقول إنه كان دائما يتساءل: متى ياترى يفاتحه «جبل» فى ذلك؟ وأضاف أنه من حسن الحظ أن «سيدة» فتاة ممتازة كما كانت المرحومة أمها.. ما إن قال ذلك حتى اعترى ابتسامة الابتهاج فى فم «جبل» ارتباك غير خاف.. فقهقه «البلقيطى» قائلا: ولكنك تطلب شفيقة، أعلم هذا يا ابن والدى، أخبرتنى به عيناك.. فلا تؤاخذنى، فهذه طريقة الحواة فيما يعقدون من اتفاقات فى الضحى زغردت «سيدة».. ثم شهد سوق المقطم زفة «جبل».

* * *

وركن «جبل» إلى الدعة أياما، وراح يعيش مع أحلامه، ولكن «البلقيطى» – و«شفيقة» – نبهه كلاهما إلى أنه لا حياة بلا عمل.. فمضى مع «البلقيطى» فى طريقه المعهود، وطلب إليه أن يتعلم بعينيه كما يتعلم بعقله، ولينظر ماذا يفعل «البلقيطى» دون أن يسأله أمام أحد من الناس. ولكن «جبلا» وجد تلك الحرفة شاقة حقا، ولكنه وطّن نفسه على البراعة فيها، ومضى مع حياته الشاقة الجديدة، راضيا متحملا لأذا بزوجه المحبة المحبوبة كلما خطر له خاطر حزن أو هوان.. وتفوّق علىأحزانه وذكرياته وأتقن صنعته الجديدة بما أدهش «البلقيطى» نفسه.. عرف الحوارى واستأنس الثعابين والحيات ولعب أمام آلاف الصبية وذاق حلاوة النجاح والربح.. وعندما تلقى بشرى الأبوة المقبلة أحيا ذلك فى نفسه ذكر الحارة و«زقلط» و«الأفندى»، وراح يتساءل من حين إلى حين، «أين الجبلاوى» فلما أبدت له «شفيقة» إشفاقها عليه هتف بها: إلى هؤلاء ينتسب الذى فى بطنك؟؟!

ويوما – وهو يعرض ألاعيبه فى زينهم – إلتقى «بدعبس» – الذى ما لبث أن لحق به مبديا دهشته من أن يعمل «جبل» حاويا، فكان جوابه أن ليس هذا بأعجب ما يقع فى دنيانا..! وراح «جبل» يتقصى منه أحوال الحارة – فعلم منه أنهم وإن رفعوا عنهم الحصار

إلا أنهم تركوهم فى ذلهم وجوعهم يسعون فى أعمالهم طوال النهار بعيدا عن «حارتنا» وإذا عادوا تواروا وراء الجدران، بل إنهم قتلوا منهم عشرة فى عهد الحصار ذهبوا فداء لقدرة.. دون أن يتوقف الفتوات عن الصفع والبصق والعدوان. أثار ذلك «جبلا».. فمضى يقول وكأنه يحدث نفسه: لا تطيب الحياة وبها أمثال أولئك الأوغاد».

* * *

كانت حارة «الجبلاوى» تغرق فى الظلمة، وكان الليل يوشك أن ينتصف، وحى «حمدان» قد تلفّع هو الآخر بظلمة خرساء، وقد جاء إليه شبحان من ناحية الخلاء – كل منهما يحمل بقجة – وطرق أحدهما باب الربع الأوسط، وفتح الباب عن وجه «حمدان» نفسه وبيده السراج ليتبين وجه الطارق. وما إن عرفه حتى هتف: «جبل».. وخلفه امرأته – حامل – وتعانق الرجلان ودخل «حمدان» بضيفه الذى مضى به إلى حجرة واسعة، وأدخلت «شفيقة» إلى الحريم. وما لبث أن أقبل كثيرون من «آل حمدان» على أثر ذيوع خبر عودة «جبل».. وهال «جبلا» ما يرى من مظاهر الأسى والبؤس بعد أن راحوا يقصُّون عليه أنباء ما يلقون من هوان وأعلن «جبل» أنه جاء ليقيم معهم حيث لا مقام له إلا هنا.. وجذبت الأسماع فى صوته نبرة قوة.. ثم ما لبث أن أعلن أنه ما جاء ليستريح، ولكنه جاء ليحدثهم فى شأن خطير أخطر مما يتصورون – روى أنه منذ أيام شعر بالرغبة فى المشى وحده رغم البرد والظلام فخرج إلى الخلاء فإذا بقدميه تقودانه إلى البقعة المشرقة على «حارتنا» وما يدرى إلا وهو يوشك أن يصطدم بشبح هائل.. بدا له شخصا ليس كمثله أحد.. طويلا عريضا كأنه جبل، فامتلأت نفسه رهبة وهم بالتراجع، وإذا بالآخر يقول فى صوت عجيب: «قف ياجبل» فتسمر «جبل» فى مكانه وسأل وجلده ينضح بالخوف: من؟ من أنت؟.. فقال بصوته العجيب: «لا تخف.. أنا جدك الجبلاوى!» فلما أبدى الجميع تشككهم وعبروا عن شكوكهم.. أصر «جبل» على روايته ومضى يكملها فيذكر إنه قال له إنه لم يحلم أن يقابله فى هذه الحياة فكان جوابه: «ها أنت ذا تقابلنى» وحاول «جبل» أن يحدّ بصره ليتبين وجهه المرتفع فى الظلام – فقال له: «لن تستطيع رؤيتى ما دام الظلام» مضيفا أنه يرى فى الظلام منذ اعتاد التجوّل فيه قبل أن توجد الحارة فقال «جبل» بإعجاب: «الحمد لرب السماوات على أنك ما زلت تتمتع بصحتك» هنا قال «الجبلاوى»: «أنت يا «جبل» ممّن

يركن إليهم، وآى ذلك أنك هجرت النعيم غضبا لأسرتك المظلومة، وما أسرتك إلا أسرتى، وهـم لهـم فى وقفى حق يجـب أن يأخذوه، ولهم كرامة يجـب أن تصان، وحياة يجب أن تكون جميلة» فسـأله «جبل» فى قوة وحماس، (وكيف السـبيل إلى ذلك؟ فكان جواب «الجبـلاوى»): بالقوة تهزمـون البغى، وتأخذون الحق، وتحيـون الحياة الطيبة «فهتف «جبل» من أعماق قلبه»: سنكون أقوياء فقال «الجبلاوى»: «سيكون النجاح حليفكم».

وتـرك صوت «جبل» وراءه صمتـا كالحلم بدوا فيه جميعا مسـحورين.. كانوا يفكرون ويتبادلون النظرات ثم يتجهون بأعينهم إلى «حمدان» الذى خرج عن صمته قائلا: فلنتدبر هـذه الحكاية بعقولنـا وقلوبنا.. إن هذا الكلام وإن كان خليقا «بالجبلاوى» حقا، ولكن ما أخلقه أن ينفذه بنفسه..!!

وتبادل الجميع الآراء.. حتى قطع عليهم «جبل» حبل الحديث وهو يعلن تصميمه:

«سـأذهب إلى «الناظر» وحدى.. عندما أقرر الذهـاب. ولكننى أريد أن أطمئن إلى أنكم ستكونون ورائى وحدة متماسكة خليقة بمواجهة الشدة والصمود لها!»

وآثار قوله الحماس بينهم.. وبخاصة بعد أن أكّد لهم أن زوجه اختارت معه نفس الطريق.. ودفع ذلك «حمدان» إلى أن يقرر أنه سيدبر له مقاما فى مسكنه.. وأن هذه ليلة لها ما وراءها..

* * *

علمت الحارة بعودة «جبل»، وأنه يسير بجرابه، ورأت الحارة زوجته وهى تسعى إلى الجمالية لابتياع حوائجها، ولم يتوقف «جبل» عن ممارسة مهنته وألاعيبه السحرية ولكن فى الأحياء المجاورة دون حارته متجنبا اسـتعمال الثعابين فى ألاعيبه – ولقيه «زقلط»، فتحرش به بسـؤاله: أين كانت غيبتك؟ فكان جوابه: فى الأرض الواسـعة؛ فعاد «زقلط» ليسـأله متمرسـا: وماذا عاد بك؟ فقال فى هدوء إنه عاد به ما يعود بالإنسـان إلى حارته، فقال له بصوت ينم عن وعيد: لو كنت مكانك ما عدت.. وسار فجأة بقوة فكاد أن يرتطم به لولا أن تنحّى «جبل» عن سبيله. وإذا بصوت بواب «الناظر» يناديه.. ليخبره أن «الهانم» تودّ رؤيته. وكان «جبل» يتوقع هذه الدعوة منذ ظهوره.. وصعد السـلم وهو يطرد عن قلبه بقـوة أسـراب الذكريات. نظر إلى أمـه فتلاقت نظراتهما وقامت المرأة لاسـتقباله فى تأثر شـديد، فهوى على يديها يقبلهما، ولثمت جبينه فى حنان، والتفت رأسـه إلى «الناظر»

فرأه جالسا وطالعهما بعينين باردتين.. فمد له يده ليصافحه.. وجرت عينا «هدى هانم» على «جبل» فى دهشة ممزوجة بانزعاج لما هو عليه من زىّ خشن، ومظهر ليس كمظهره السابق، فتجلى فى عينيها الرثاء، وأدرك «جبل» ما يدور فى نفسها، فراح يحدثها بصوت قوى عن حياته فى سوق المقطم وعن مهنته وعن زواجه حديث الراضى عن تلك الحياة.. وإذا «بالأفندى» يسأله عما دعاه إلى العودة ما دام العيش قد طاب له فى الخارج، فقال «جبل» باسما: لعلىّ عدت ياسيدى طامعا فى لقياك.. ولكن «هدى هانم» سبقت قائلة: علمت بلا شك بعفونا عن «آل حمدان» إكراما لك.. فكان جوابه:

• الحق ياسيدى أنهم يعانون ذلا ألعن من الموت، وقد قتل منهم من قتل.

• فهتف «الأفندى» بحدة:

• إنهم مجرمون، وقد نالوا ما يستحقون، وما كان يجوز أن يضيع دم «قدْرة» هدرا.

• فكان جواب «جبل» فى ثبات:

• المجرمون حقا هم الفتوات..

• رمقه «الناظر» بنظرة توجس وارتياب وهو يسأله عما يريد من مجيئه.. فما كان من «جبل» إلا أن قال فى شجاعة لا تتزعزع:

• جئت مطالبا بحقوق «آل حمدان» فى الوقف وفى الحياة الآمنة..

• أسود وجه «الأفندى» من الغضب وهو يتساءل: أتجرؤ حقا على معاودة هذا الحديث؟

• أنسيت أن المصائب تتابعت عليكم منذ تقدم شيخكم بهذه المطالب الخرافية..؟؟

• فما كان من «جبل» إلا أن قال بصوت قوى:

• إنما رددت على مسامعك رغبة من لا ترد له رغبة، وهو جدك وجدنا «الجبلاوى»!!

واندهش «الأفندى»، وتساءل فى ذهول: ماذا حصل لعقل «جبل»؟..

فما كان من هذا الأخير إلا أن قال: اسمع قصتى واحكم بنفسك وقص عليهما ما سبق أن قصه على «آل حمدان».. فما كان من «الأفندى» إلا أن أنكر عليه كل ما معه مقررا أن الواقف لم يغادر بيته منذ اعتزل فقال «جبل» أن يزايله هدوؤه: «علم الله أنى ما جاوزت الحق، فلنحتكم إلى «الجبلاوى» نفسه إن استطعت وإلى شروطه العشرة». انفجر غضب «الأفندى». ارتعشت أطرافه.. صاح «بجبل» واصفا إياه باللص المحتال، مهدّدا إياه بمصير أسود، بل وصاح فيه بأعلى صوته أن اخرج يا محتال، اخرج من بيتى، وإن عدت إلى هذيانك قضيت على نفسك، وعلى أهلك بالذبح كالنعاج.

قطب «جبل» غاضبا، وهو يصيح «بالأفندى» محذرا من أن يحيق به غضب «الجبلاوى». هجم «الأفندى» على «جبل» ولكمه فى صدره بأقصى قوته، وتلقى «جبل» اللكمة بثبات وصبر وهو يقول «للهانم»: إنما أكرمه إكراما لك.. ثم ولاهما ظهره وانصرف..

* * *

ما هو رد الفعل المتوقع؟ ذلك ما شغل بال «جبل» وفكر «آل حمدان» وقد توقعوا شرا داهما، ولكن مضت فترة دون أن يصدر رد فعل. ومع ذلك فقد خرج «جبل» مخالفا نصيحة «آل حمدان» ليتجول كعادته. كان يتوقع شرا عند كل خطوة لكن أحدا لم يتعرض له بسوء.. ففكر طويلا فيما ينبغى عمله لينفض الدماء عن الجمر. فكان أن وقعت أحداث غريبة.. ثعبان يدخل على سيدة زاحفا بين قدميها فصرخت وخرجت تجرى إلى الطريق وتطوّع رجال للتفتيش عن الثعبان وقتله ولم تكد تمضى ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانية فى بيت فى مطلع الحارة، وما حلّ الليل حتى تعالت صرخة فى ربع من ربوع «حمدان».. وذاع أن ثعبانا لدغ «حمودة» الفتوة. ولم يتوقف نشاط الثعابين العجيب، وغطّت أخبار الثعابين على ما سواها إلى أن ظهر ثعبان ضخم فى بيت حضرة «الناظر» – وترامى فى نفس الوقت صراخ وضجة، فقد لدغ ثعبان ابن «زقلط» ثم اختفى.. وفى بيت «الناظر» قال «حسنين» إن «جبلا» حاو وله خبرة باصطياد الثعابين.. وأمرت «الهانم» البواب بأن يستدعى «جبلا»، وجاء «جبل» حاملا جرابه الخالى، ووقف أمام «الناظر» و«الهانم» فى أدب وثقة.. وطلبت إليه «الهانم» أن يطهر البيت من الثعابين – فقال إنه تعلم ذلك فيما تعلّمه.. وتساءل «جبل»، هل يأذن حضرة «الناظر»، فهمهم الرجل بالموافقة وهو يدارى حنقه وقهره.. فقال «جبل»: إن خبرته تحت أمر الجميع، ولكن لكل شىء ثمنه كما تجرى المعاملات فى «حارتنا» فتطلع إليه الفتوات فى دهشة فتساءل «جبل»: «علام تدهشون؟ إنكم تحمون الأحياء نظير الإتاوات، وحضرة «الناظر» يدبّر أمر الوقف نظير التصرف فى ريعه» ولما سئل: وماذا تطلب نظير عملك؟ وجاء جوابه: إنه يطلب كلمة شرف باحترام «آل حمدان» فى كرامتهم وحقهم فى الوقف.. وساد الصمت، وتنفس الجوّ بالحقد المكتوم.. ولكن «جبلا» عاد يقول: «لا تظنوا أننى أتحداكم.. الحقُّ أننى أذكّركم بما

يمليـه عليكم العدل والحقّ نحو إخوانكم المغلوبين على أمرهم وقيلت ردود عديدة حسـمها «الناظر» – والحقد يستعر فى صدره – بقوله مخاطبا «جبلا» أنه معطيه كلمة الشرف التى يطلبها وليبدأ عمله..

ومضى «جبل» إلى العمل حتى طهر بيت «الناظر».. وحيّاه وهو ينصرف مذكِرا إياه فى شجاعة بأن وعد الحر دين عليه.

* * *

تمكـن «جبل» من تطهير جميع بيوت الحارة على مرآى من الجميع، وقوبل بالتهليل والتصفيـق بـل وتظاهر الأفراد لتحيته فخـرج إليهم الفتوات وتعرّضـوا للمتظاهرين صفعا وركلا.. وكمـا هو متوقع فقد تآمر الفتوات و«الناظر» على النكوص بالعهد إيمانا منهم بأنه لا مكان إلا للقوة، وكلمة الشرف لا تساوى شيئا فى مواجهة الفتوة والنبوُت وحتى لا يضيع الوقـف و«الناظـر» والفتوات، ومن هنا رسمت خطة المؤامـرة لتأديب «آل حمدان»، وكان «جبل» قد وضع هو الآخر خطته المضادة ووزع الأدوار على الجميع: من الرجال والنساء، فلكل منهم دوره المرسوم..

غادر «زقلط» بيته وسـط هالة من الفتوات يتبعهم الأعوان مسـلحين بنبابيتهم قاصدين حى «حمدان».. ولما وصلوا إلى بوابة الحىّ هجموا عليها حتى فتحت لهم تحت هجماتهم وصرخ «زقلط» لرجاله بالاندفاع داخلين وقاصدين رأسا إلى «الدهليز» و«زقلط» يطلق ضحكاته السـاخرة.. وما كاد المهاجمون يتوسـطون الدهليز حتى مادت أرضه بهم بغتة وهوت بمن عليهـا إلى عمق هوة حفرة عميقة، وفى سـرعة مذهلة فتحت النوافـذ على جانبى الدهليز وانصبَّت المياه.. وتقدم رجال «حمدان» دون تردّد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب، والرمال.. ولأول مـرة سمعـت الحارة الصراخ يصدر عن فتواتها، ورأت الدم يتفجر من رأس «زقلط»، والنبابيت تتخطف رؤوس الفتوات الآخرين..

وسرى الخبر فى الحارة مسرى الهشيم، وعرف الجميع أن «جبلا» الذى أهلك الثعابين تمكن بعد ذلك من إهلاك الفتوات.. ولم يتوقف «جبل» لحظة، فكل شىء مدبَّر فى رأسه، وصاح بأهله.

• هلموا الساعة إلى بيت «الناظر».

* * *

وســار الجميع يحطمون، وينهبون، ويعتدون فــى فوضى لاضابط لها، حتى لحق بهم «جبل» على رأس أهله نساء ورجالا، فأوسعت الجموع لهم، وتعالى الهتاف.. ونظر «جبل» فى الوجوه المتطلعة، وطلب إليهم أن يتفرقوا فى هدوء ويدعوه لكى يحقق لهم إرادة الواقف ودخــل «جبــل».. وكانت «الهانم» واقفة فى استســلام على حين بــدا «الأفندى» على عتبة الباب، خافض الرأس، شــاحب الوجه.. وواجهه بقوله: ها أنت ذا ترى نفســك ذليلا بلا حول ولا قوة، لافتوة يحميك، ولا شجاعة تؤيدك، ولا مروءة تشفع لك.. ارتعدت فرائص الرجل. غير أن «الهانم» تقدمت من «جبل» وخاطبته بأنها لا تحب أن تسمع منه غير طيب الــكلام.. فأجابها بأنه لولا منزلتها عنده لجرت الأمور بغير ما جرت به.وبادر «الأفندى» يخــرج عــن صمته فكان كل ما قاله أن عرض على «جبــل» أن يحتل مكان «زقلط»، وكان الرفض القاطع هو الجواب فليست الفتونة مطلبه، وما يريد إلا حقوق «آل حمدان» كاملة.. فكان جواب «الأفندى»: «هى لكم دون نقصان».. واقترحت «الهانم» أن يعود «جبل» فيقيم معهم – فما كان من «جبل» إلا أن قال فى تصميم: (ســأقيم فى ربوع آل «حمدان») وقال «الناظر» إن حق «آل حمدان» سيســجل على رءوس الأشهاد. وبذلك تحقق «لجبل» كل ما يبغــى من انتصار، ولذلك عندما طلبت إليه «الهانم» أن يتناول عشــاءه الليلة معها.. وأن تلك هى رغبة أم.. لم يسعه إلا أن يقول: لك ما تشائين ياسيدتى.

* * *

ســعد «آل حمدان»، خاصة بعد أن وصلهم حقهم من الوقف كاملا، ولكن «جبلا» عمد فى توزيع تلك الخيرات عليهم إلى التزام العدل والمســاواة فلا تمييز لأحد على آخر، حتى هو نفسه أخذ نصيب اثنين هو وزوجه. وأثار ذلك من كانوا يرون أنفسهم حقيقين بالتميز عن ســواهم، وقد عبَّروا عن ذلك، ولكنه ردهم إلى أن شــيمته العــدل ومراعاة الحق.. وقد مضــى «دعبس» بما حظى به إلى حيث ما جدّ مــن القهاوى ليمارس لهوه وعبثه: وتراءى لــه أن يقامر كعبل، ولكن هذا كســب الجولة، واحتــاز كل ما كان مع «دعبس» من أوراق مالية هى نصيبه من ريع الوقف، فاغتاظ وثار، ولم يشأ أن يذعن للحظ، وأراد أن يستعيد ماله بالقوة، فأبى الآخر، فتعدّى «دعبس» عليه ولطمه لطمة شــديدة أصابت إحدى عينيه

ففقأتها، مما أثار «جبلا»، ودعا القوم الذين تشـفعوا «لدعبس»، وقالوا يكفى أن يرد المال إليـه، ولكن «جبلا» لم يرتض ذلك، بل أصر على العقاب: العين بالعين.. ولما وجد الإباء نهض فأمسـك «بدعبس» من ظهره وشد عليه بكلتا يديه وأمر المجنى عليه بأن يأخذ ثأره عينـا بعـين ولم يترك «دعبس» من قبضته حتى تم تنفيـذ ما قضى به مما أثار فى النفوس ردود فعل مختلفة، ولكنهم اضطروا إلى كتمانها.

وجاء إلى «جبل» نفر من أهل الحارة من غير «آل حمدان»، يشـكون إليه ماهم فيه من ذلّ وفقـر، ويطلبون إليه أن يحصـل لهم على حقهم من الوقف، ولكنه قال إنه إنما كلف بمهمة محددة وهى أن يسـترد حقوق «آل حمدان»، ولم يكلف بأكثر من ذلك، فلما ناشده اللاجئون بالرحمة والعدل، كان كل ما وعدهم أنه سوف يفكر دون أن يفعل لهم شيئا...

وقـد ترددت فى الحارة وبين «بنى حمـدان» أقاويل متناقضة، فمنهم من راح يتهامس بقسوته وظلمه ولكن هؤلاء وجدوا دائما من يردّ عليهم قولهم ويذكرهم بالوجه الآخر لقسوته وهـو الرحمة بالمعتدى عليهم والرغبة الصادقة فى إقامة نظام يضمن العدل والنظام والإخاء «لآل حمدان»..

أجل فقد لبث «جبل» بين آله مثالا للعدل والقوة والنظام.. ولكنه لم يهتم بالآخرين من أبناء حارتنا.. «ولعله كان يضمر لهم احتقارا وازدراء كسائر أهله. ولكنه لم يعتمد على أحد منهم، ولاتعرض له بسوء».

* * *

(٣)
رفاعـة

انقضـى زمن «جبل».. وعـادت بعده الأمور إلى ما كانت عليه: أهل الحارة يعيشـون فـى ذل، يحكمهم الفتوات ويتحكمون فيهم وعلى رأسـهم الفتوة الأكبر حامى حمى ناظر الوقف.. وهذا الأخير يوزع بعض ثمار الوقف على الأحياء، فهو يسلمها إلى الفتوات الذين يؤثرون بها أنفسـهم، ويؤثرون أهل الحارة بصفعاتهم وركلاتهم وإيقاع أقسى آيات الظلم، فمن خطف للصغار وتجهيل لصائرهم إلى تعدّ على رجالهم.. من ذلك تعدى «زنفل» الفتوة

على «شافعى» النجار لا لشئ إلا لأنه جعل مرة الوقف حديثه ثم استطرد قائلا إن المجرم الملعون خطف وليد «سيدهم» بياع لحمة الرأس ثم لم يسمع أحد عن الوليد شيئا بعد ذلك.. فكان جزاؤه أن أخذ «زنفل» بتلابيبه، يهزه بعنف حتى كاد يقتلع ضلوعه، ثم راح يمرغه فى التراب أمام الخلق.. ثم مضى «زنفل» يحطم دكان «شـافعى» حتى تركه حطاما.. ولم يجد «شافعى» سبيلا إلا أن يتحسر على «جبل» وأيام «جبل»...

وشـوهد «شـافعى» والفجر يوشـك أن يطلع يصحب زوجه الحامل حاملين متاعيهما الضئيل فارين من الحارة خوفا من مزيد من العدوان وخوفا من أن ينال العدوان طفلهما القادم فى الطريق.. مضيا حتى وصلا إلى الخلاء، وعند صخرة «هند» ركنت المرأة لتسـتريح قليلا وتلتقط أنفاسها لتواصل من بعد الرحلة إلى «سوق المقطم» حيث انتوى «عم شافعى» أن يفتح محـلا للنجـارة ليعيش هو وزوجه ووليده من كد عمله. ولما أبدت الزوجة حسـرتها لفراق الحـارة والبعد عن الأهـل راح يذكّرها بما كانا يلقيان فى الحارة من مذلة وإهانة وبما كان يهددهمـا من أخطار.. وبخاصة بعـد أن تأكد لديه أن جدهما – «الجبلاوى» – لن يظهر ثانية، فقد اعتزل فى البيت إلى الأبد.. ومع ذلك راح يردد نداءه «للجبلاوى» إلى أن نهضت «عبده» زوجه، تناول كفها فى يده، وسارا نحو الجنوب، نحو سوق المقطم.

* * *

واسـتقر بالمهاجرين المقام فى سوق المقطم، وأنجبا وليدهما «رفاعة». الذى نشأ فى غير موطنه الأصلى فلم يعرف له موطنا سـوى «سوق المقطم» ولارفاقا سوى من عاشرهم ولاعبهم فى «السوق»، ونما «رفاعة»، وشب عن الطوق، طالت قامته، واشتد عوده، ولكنه ظل عودا نحيلا يميزه وجه مضاء لفتى جذاب المنظر ينضح بالوداعة والرقة.....

ولكن عن لتلك الأسرة من بعد أن تعود إلى الحارة، وبخاصة بعد أن توفى «زنفل» الفتوة ليحلّ محله «خنفس» ويسير سيرته فى النهب والعدوان..

عـاد الغريبـان وإن أصبحا ثلاثة وكان الشـوق إلى الحارة طاغيا بالنسـبة للأبوين أما «رفاعة» فكان إحساسه الأول هو الغربة فى ذلك المكان الجديد غير المألوف إليه وإن كانت «عبده» تحاول أن تحببه إليه بأنه حارته الأصلية حيث أهله سادة الحارة وما أجمل حى «آل جبل» بعد وفاة «زنفل»..

والتقـوا بأهـل الحارة الذين تلقوهم مرحبين.. وكانت نظـرات «رفاعة» تتأمل ما حوله فى شـغف وهو يسـتمع إلى أمه تحدثه عن «البيت الكبير» بيت جده صاحب هذه الأرض حاكمهـا ومـا عليها.. وأنه لولا عزلته لملأ الحارة نورا.. وقد أكمل «عم شـافعى» الحديث بقوله: وباسم هذا الجد ينهب «الناظر» الحارة ويعتدى الفتوات علينا..

مالت الأسـرة إلى حى «جبل»، فصادفهم من رحب بهم وأخذهم بالأحضان، ولكنهم واصلوا السير، و«رفاعة» يتفحص ما حوله فى اهتمام وشغف، ومضت عيناه فى التجوال حتـى وقفتـا عند نافذة، تطلّ منها فتـاة راحت تحملق فى وجهـه باهتمام فلما التقت عيناهمـا رفعـت ناظريها إلى الأفق، وسمع من يردد إنها «عيشـة بنت «خنفس»، نظرة إليها تسبب مذبحة».

وواجههـم بعد قليل «خنفـس» يرفل فى جلباب فضفاض، وينظر فى عدوانية وتحرش فتسـارع الجميع يقدمون إليه الأسـرة الجديدة التى انحنى أفرادهـا يلثمون يده، ويبدون آيـات الـولاء والاحترام.. وصافحهـم باحتقار.. وهو يهدّدهم بأنهم لـن يجدوا منه مهربا عنـد الغضـب عليهم.. ومضوا و«عبده» تقول إن المعلم لـن يجد منهم إلا كل طاعة وولاء.. وصحبهم كثيرون إلى مأواهم الجديد.. وتراءت فى نافذة مطلة عليهم فتاة حسناء ذات جمال وقح، وقفت تمشـط شعرها.. وهى تتساءل فى دلال عمَّن يكون القادم كالعريس فى الزفة.. فتضاحـك الجميع وقـال رجل: جار لك جديد يا «ياسمينة» سـيقيم فى الدهليز أمامك.. هتفـت ضاحكة: ربنا يزيد فى الرجال وتوقفت عيناهـا على «رفاعة» باهتمام وإعجاب.. ولكنه تبع والديه إلى باب مسـكنهما الجديد المقابل لمسـكن «ياسمينة» على الجانب الآخر من الدهليز.. وصوت «ياسمينة» يغنّى، «آه من جماله يامه».

* * *

سـارت الحياة بالأسـرة فى الحارة مسارها الطبيعى – فتح «عم شافعى» دكان النجارة ومضى هو وابنه إلى الدكان، جلسـا على عتبته ينتظران الرزق. خرجت «عبده» تتسـوق – راح الرجـل يحـدّث ابنه عن «الدهليز المبارك» الذى أغرق فيه «جبل» الأعداء.. وفيما هما يتحدثـان وصـل إلى سمعهما صوت فيه غنج مناديا «عم يانجار» نهض الأب ورفع رأسـه فـرأى «ياسمينة» تطلّ من النافذة وضفيرتاهـا الطويلتان تتأرجحان.. طلبت إليه أن يبعث

صبيــه ليأخذ «الترابيزة» لإصلاحها، صعد «رفاعة»، وجد الباب مفتوحا، و«ياسمينة» فى جلباب بنى ذى كلفة بيضاء حول الطوق وفوق نهضة النهدين، حافية وعارية الســاقين، لبثت صامتة.. ثم أشــارت إلى «الترابيزة» بثلاثة أرجل والرجل الرابعة فى ركن الصالة – حمل «رفاعة» حمله ومضى..

عند المساء ذهب الرجل وابنه إلى قهوة «جبل».. حيث أبديا للفتوة تحية الخضوع، ثم جلسا ليستمعا إلى جواد الشاعر يمضى يقص حكايته، ويروى أشعاره وكلها «حكايات حارتنا» بدءا من «الجبلاوى» ومرورا «بأدهم» ومن عاصره، ثم حديث «جبل»، اســتمع «رفاعة» إلى هــذه الحكايات جميعها، فوجد فيها عزاء عن ملاعب ســوق المقطــم وخلواته، كما وجد فيهــا راحــة لقلبه المحترق بهيام غامض غموض البيت الكبير المغلق دون أن يكون فيه أثر لحيــاة.. وأبدى «رفاعــة» لأبيه رغبته فى أن يزور المقاهى الأخرى، وتلمســا طريقهما إلى البيت فترامت إليهما من بيت «ياسمينة» ضجة مخمورة.. وكان ما قاله «رفاعة» أنه سوف يزور «عم جواد» الشاعر.

وعندما طرق «رفاعة» باب جواد الشاعر تلقاه هذا الأخير بترحيب ومضى به إلى حجرة صغيرة مربَّعة اصطفت بأضلاعها الشــلت وانبســطت فوق أرضها حصيرة مزركشة، ونادى الرجــل زوجتــه فجاءت «أم بخاطرهــا» حاملة صينية القهوة: امــرأة فى منتصف الحلقة السادســة مســتقيمة العود، قوية البنية – تلفت النظر إليها بعينين نافذتين، ووشــم فوق الذقــن، فأثنى لها «جواد الشــاعر» على الضيف بأنه «سميع» فــكان جوابها التلقائى إن حكاياته جديدة عليه، معادة عليهم ولم يرتض الشاعر هذا التعليق فقال بغيظ إن هذا صوت عفريــت مــن عفاريتها ثم يلتفت إلى «رفاعة» ليخبره بأن «الوليــة كودية زار» فتطلع إليها «رفاعــة» باهتمام، والتقت أعينهما تمــد إليه يدها بفنجان القهوة، ذاكرا كم كانت تجذبه دقة الزار فى ســوق المقطم! ودارت بينهم أحاديث قال «رفاعة» إنه كم سمع من أبيه عن الوقف ومشــاكله، ولكنه مال إلى حديث أمه عن جده وأهله.. ولفتت صورة مرســومة على الحائط نظر «رفاعة» – تمثِّل رجلا هائلا تبدو إلى جانبه ربوع الحارة ضئيلة.. وعندما سأل عــن صاحب الصورة أجابتــه «أم بخاطرها» إنه «الجبلاوى» رسمه المبيِّض على مثال مايرد من أوضاعه فى الحكايات..

وتساءل «رفاعة» موجها تساؤله إلى «أم بخاطرها»: من أين أتتها القدرة على العفاريت؟ فأجابته بأنها حرفتها كما أن النجارة حرفة «عم شافعى».. جاءتها من وّهاب المنح...

وقطع عليها الحديث صوت «عم شافعى» يصلهما متصاعدا من الحارة ينادى «رفاعة» لينزل إلى الدكان، فقام «رفاعة» إلى النافذة وأطلّ منها ليعد أباه بأنه سيمضى بعد نصف ساعة، وعندما أخذ «رفاعة» يغلق النافذة رأى «عيشة» فى موقفها كما رآها أول مرة، ترنو إليه باهتمام. وخيل إليه أنها ابتسمت أو أن عينيها تكلمتا.. وتردَّد لحظة، وما لبث أن أغلق النافذة وعاد إلى مجلسه.. وعندما سأله جواد عمَّا يرغب أن يكون – كان جواب «رفاعة»: «علىّ أن أكون نجارا كأبى، ولكنى أحب الحكايات وهذه الأسرار التى تدور حول العفاريت التى أرجو أن تحدثنى عنها عمتى» فكان جوابها أن طلبت إليه أن يلازمها كلما سمح الوقت ولكن على شرط ألا يغضب «عم شافعى»..

ومضى وقد أثارت «أم بخاطرها» خياله كما لم يثره شىء من قبل.. وإن لزم الدكان وعمل فى النجارة إلا أنه كان يفكّر طويلا فيما تقول أو تفعل «أم بخاطرها»، وقد رسبت فى نفسه أحاديثها: لكل إنسان عفريت هو سيده، وكما يكون السيد يكون العبد.. وكم من ليلة قضاها فى حضرة «الست» يتابع دقات الزار، ويشهد ترويض العفاريت.. وقالت له المرأة إنه أول رجل يرغب فى هذا العمل وسألته عما استهواه فيه، فأكد قائلا: إن أحكم ما فى عملك أنك تهزمين الشر بالطيب الجميل.. ولما مضت تبيح له أسرارها طاب نفسا.. وقد تعود أن يصعد إلى سطح الربع فى نشوة الفجر ليشهد يقظة النور. ولكن البيت الكبير كان يستأثر بلبِّه دون النجوم والسكون.. ويرنو إليه طويلا متسائلا: أين أنت ياجدى؟ لم لا تظهر ولو لحظة؟ لماذا لا تخرج ولو مرة؟ لماذا لا تتكلم ولو كلمة؟.. وكان كلما أفضى بخواطره إلى أبيه سمع عتابا.. لأن عمله أولى باهتمامه.

* * *

ويوما كانت أسرة «رفاعة» مجتمعة بعد الغداء.. قالت «عبده» وهى تنظر إلى ابنها بإعجاب: خبر سعيد يا «رفاعة»، زارتنى ست «زكية» زوجة فتوتنا «خنفس»! ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال، فاستقبلتنى بحفاوة، وقدمت لى ابنتها «عيشة»، بنت جميلة «كالقمر»، ثم زارتنى مرة أخرى ومعها «عيشة».

ولما لم يبد «رفاعة» تجاوبا للحديث.. قالت له أمه: فلنذكر أن «خنفس» سيد «آل جبل»، وأن صداقة أهله دعاء مستجاب، فما كان من «رفاعة» إلا أن قال في ضجر «مباركة عليك هـذه الصداقة».. ضجـر الأبوان من ابنهما الذى يتجاهل الأمـر.. وراحت «عبده» تناجيه بإغراء ورجاء بأنه وحده الذى بيده أن يدخلهم جميعا نظارة وقف «آل جبل»، سـيرحبون بـه إذا هو تقدم لخطبة «عيشـة»، حتى «خنفس» سـيرحب به؛ إذ لـولا ثقة امرأته من موافقته ما أقدمت على الزيارة.. إن أمامه جاها سـوف تحسـده عليه الحارة من أولها إلى آخرها.. وتضاحك «عم شافعى» وهو يقول: «ومن يدرى لعلنا نرى «رفاعة» يوما ناظرا لوقف «جبـل».. نحن اليوم نعيـش كما يعيش غيرنا، فلا يجوز أن نهمـل انتهاز فرصة جاءت بنفسـها إلينا..» وكان جواب «رفاعة» تسـاؤلا: كيف أصهر إلى عفريت وأنا لا أهتم اليوم إلا بمطاردة العفاريت.. ثم أعلنها صريحة بأنه لن يتزوجها.. ورغم مناشـدة أمه وأبيه إلا أنـه أصر على رأيه.. مما زاد انقبـاض «رفاعة»، وضيقه لحد البكاء.. حتى بدا البيت فى ناظرية سجنا كئيبا.. وأدرك «رفاعة» أن مراده ليس فى هذا المكان، ولا بين هؤلاء الناس.. وفجأة قام فغادر الحجرة..

* * *

تغيب «رفاعة» عن الدكان: مضى النهار يزحف وضوء الشـمس ينحسـر: دون أن يظهر «رفاعة»، وأتى المسـاء فأغلق الرجل الدكان وهو فى غاية الضيق.. قصد كعادته القهوة، فلما رأى «جواد» الشـاعر قادما وحده تولاه العجب وسـأله عن «رفاعة»، فلما أخبره بأنه لم يره منذ الأمس ضاق «شـافعى» وقام مغادرا القهوة ماضيا إلى بيته، لينقل قلقه إلى «عبده».. التى صحبته إلى سوق المقطم، ليعودا إلى الحارة كما ذهبا ولكن على حال من الجزع أشد.. ومرضت «عبده» من الحزن، وعمل «شـافعى» فى دكانه بعقل شـارد، أمـا «زكية» زوجة «خنفس»، فقـد انقطعـت عن زيارة «عبده» وتجاهلتها فى الطريق. ويوما كان «شـافعى» مكبا على عمله إذ صاحت به «ياسمينة» وهى عائدة من مشـوار: «عم شـافعى» انظر وجدها تشـير إلى نهاية الحارة عند الخلاء – نظر فرأى ابنه «رفاعة» يتقدم نحو الربع فى استحياء، هرع الأب نحو ابنه، وراح يسأله أين كان، فلا يجد منه جوابا، واقتربت منه يا«سمينة» وسألته فى ارتياب أين كان، فلم ينظر نحوها وسـار به أبوه إلى البيت رأته أمه وثبت من الفراش مبدية الشـوق والحنين فتناول راحتها بين يديه وأجلسها على الفراش وجلس إلى جوارها.. وحاول أبوه أن يحادثه فقال إن الأمر لا يعدو أنهم قصدوا إسعاده.. فقال «رفاعة» بحزن إنه متعب، فسأله

صوت: وأين كان ؟.. فكان جوابه أنه ضاق بحياتة فذهب إلى الخلاء، شعر برغبة فى الوحدة والخلاء. وراح أبوه يعبِّر عن تحسـره بقوله: ما هكذا يفعل العقلاء! ! فراحت «أم بخاطرها» تقول: ليس حاله بالغريب على: صَّدقونى إنه شاب نادر المثال. ليس فى الحارة فتى مثله.. وصاحت «أم بخاطرها» «بشافعى» مردِّدة: وحِّد الله يارجل. أنت لا تدرى ما تقول، ولا تفهم ما يقال.

* * *

«رفاعـة» يتداخل فى الحديث الـذى كان يدور فى الدكان بين عدد من أقطاب الحارة فيعارضهـم بمثل قوله: «أراد اسـتخلاص حقنا بالحسـنى، ولم يعمـد إلى القوة إلا دفاعا عن نفسـه» وقوله: «لايعوزنا الجبروت، كل سـاعة من نهار أو ليل نرى أناسـا يضربون ويجرحـون ويقتلـون.. ولكن أين العدل؟ ما أقبح هذا كله» وعندما قال أحدهم إن القوة هى الواجبة، وبغيرها لا يسـود العدل قال «رفاعة» وبإصرار: «الحق أن حارتنا فى حاجة إلى الرحمة».. وعندما انفض المجلس ترك «عم شافعى» عمله ليعاتب ابنه طالبا إليه: «لاتحشر نفسك فى أحاديث أولئك الناس» ما كان من «رفاعة» إلا أن وقف أمام أبيه. ثم تناول يده وتراجع به إلى ركن الدكان بعيدا عن الآذان. بدا منفعلا، لكن انطبقت شـفتاه فى تصميم، وشع من عينيه نور عجيب.. وهو يقول:

• «لن أستطيع السكوت بعد اليوم».. ليقول بعد ذلك بهدوء غريب:

• «لايجـوز أن أخفى عليك ما قر فى نفسى»وسـأله أبوه عمـا عنده فاقترب منه أكثر وهو يقول:

(أمس عقب خروجى من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة فى الانطلاق.. فقصـدت الخلاء، مشـيت فى الظلام حتى تعبت، ثم اخترت مكانا أسـفل سـور البيت الكبير المشـرف على الخلاء فجلست مسـندا ظهرى إلى السور.. سمعت صوتا غريبا يتكلم كأنما يحدث نفسـه فى الظلام فدهمنى شـعور مشرق بأنه صوت جدنا «الجبلاوى») قمت حال سماعى الصوت فاسـتدرت نحو البيت، وتراجعت إلى الوراء لأتمكن من رؤيته ولكنى لم أر إلا ظلامـا.. سمعت الصوت وهو يقول (أما «جبل» فقد قام بمهمته وكان عند حسـن الظـن بـه، ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليـه!).. وقد جاء الصوت من البيت هتفـت قائلا: (ياجدى، «جبـل» مات، وخلفه آخرون، فمد إلينا يدك).. ومضى «رفاعة»

يكمل حديثه قائلا: «جدى سمعنى، وجاءنى صوته قائلا: (ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعمل، والابن الحبيب متى يعمل.؟) فسألته: (وما حيلتى حيال أولئك الفتوات أنا الضعيف؟) فأجابنى: (الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سر قوته، وأنا لا أحب الأغبياء).. وهنا ضاق «شافعى» فتساءل مستنكرا أن يكون شىء من هذا قد حصل أو أن «رفاعة» قد دار بينه وبين «الجبلاوى» هذا الكلام – ولكن «رفاعة» يؤكد صدق ما يقول مقسما برب السماوات – ويكون تعليق «شافعى» متوجعا قوله: إن الأوهام خلاقة المصائب!

ومضى «رفاعة» وكأنه لم يسمع ما قاله أبوه قائلا: «صدقنى يا أبى، ليس فيما أقول شك.. فأنا الآن أعرف ما يراد منى.. نعم، إنى ضعيف، ولكنى لست غبيا، والابن الحبيب من يعمل.. وأنا لا أتطلع إلى الوقف.. فما أتفه الوقف إن أمكن بلوغ الحياة الصافية بدونه، وهذا أمر ممكن لمن يشاء، وبوسعنا أن نغنى منذ الساعة.. جدى قال إنه لا يحب الغباء، وقال إن الغبى هو الذى لا يعرف سر قوته، وإنى آخر من يدعو إلى قتال فى سبيل الوقف. الوقف لاشىء يا أبى، وسعادة الحياة الغناء هى كل شىء، ولا يحول بيننا وبين السعادة إلا العفاريت الكامنة فى أعماقنا، ولم يكن عبثا أن أشغف بطب العفاريت وأن أحسنه، لعلها إرادة رب السماوات هى التى دفعتنى إليه».

نظر «عم شافعى» فى أركان دكانه متحسرا على قلة دخله ثم متسائلا: ماذا سيأتى به الغد من جراء ما يقول «رفاعة» أجاب «رفاعة» بأنه لن يأتى إلا كل خير، لأن شفاء المرضى لن يقلق إلا العفاريت..

وتوهج ضياء فى الدكان منبعث من مرآه صوان قرب الباب عاكسة شعاع الشمس الماثلة.

* * *

قلقت «عبده»، ولكنها راحت تطمئن نفسها بأنه طالما ركز اهتمامه بالنفوس لا بالوقف ومادام لا يؤذى أحدا فلن يؤذيه أحد.. وكان ذلك خلال حديث جرى بين الزوجين – أما «رفاعة» فكان فى الخارج.. فى أقصى الحارة عرس تترامى منه أصوات طبل وزمر وزغاريد ولكن تلك الأنغام ما لبثت أن اختفت وراء ضجة انفجرت فى الدهليز، وأطلا من نافذة ليجدا الدهليز مزدحما بالرجال، وقد اختلطت الأصوات، وعمّت الضوضاء.. وأصوات ترتفع: «هذه المرأة مجنونة.. إنها لا تعرف معنى الشرف» وسرعان ما ظهر «خنفس»

يتساءل عن الخبر، فأجابه أكثر من صوت: «ياسمينة» لوثتنا وراحوا يحكون أنها رئيت منذ قليل خارجة من بيت «بيومى» الخلفى.. وهى فى غاية السكر، كانت رائحة الخمر تخرج من فيها فتملأ المكان.. فماذا كانت امرأة سكرانة تفعل فى بيت فتوة؟ وكان ذلك امتحانا لفتوة «خنفس»، فماذا يفعل ازاء فتوة الحى؟ والأصوات تتعالى بضرورة إقامة الحد. وترامت صرخات «ياسمينة» من وراء الباب.. وتساءل «رفاعة»: أليس الأولى أن يصبوا جام غضبهم على «بيومى»؟ واحتدم النقاش وصاح من صاح إن الكلمة للمعلم. وتعالت صرخات «ياسمينة»، فأفلت «رفاعة» من يد أبيه وهو يهتف برجاء: رحمة بضعفها وذعرها.. ارحموها.. ألا تحرك الاستغاثات قلوبهم؟ فلما لم يزجرهم رجاؤه.. أعلنها عالية: هل يرضيكم أن أتزوجها؟ وأجابوه أن ذلك بعد أن تنال جزاءها، ولكن «خنفس» وجد فى اقتراح «رفاعة» منقذا له من ورطته وإن لم يكن – فى قلبه – مقتنعا به.. فقال «خنفس»: الولد ارتبط أمامنا، فله ما يطلب.. وإذ اعترض أحدهم على هذا الحل إذا بقبضة «خنفس» تحطم أرنبة أنفه فتراجع مولولا والدم يسيل من أنفه وكان ذلك داعيا لتأييد «خنفس» وإسكات كل صوت يعارضه، بل ذهب الجميع يترضونه.. وعندما جاراهم «عم شافعى» وراح ليصافح «خنفس» فإذا بهذا الأخير يستشيط غضبا ويضرب يد «شافعى» بظاهر كفه فتأوه الرجل وهرع إليه ابنه وزوجه على حين غادر «خنفس» الدهليز وهو يسب الجميع.. وكان ما قاله «عم شافعى» إن الجبان نسى أن ابننا الأحمق هو الذى أنقذه من «بيومى».

* * *

وكان فيما حدث خيبة أمل كبيرة «لشافعى» و«عبده»، وقد صار هذا التصرف مضغة فى الأفواه، غير أن «ياسمينة» هرعت بعد الحادث إلى بيت «عم شافعى» وجثت أمام الرجل وزوجه باكية وسجدت على قدميها ببعض ما فاض به قلبها من الامتنان بعد أن أعلنت فى حرارة وجد توبتها وإذا لم يكن من الممكن العدول عن إتمام الزواج فقد سلم الجميع بضرورة ذلك وإن كانوا موقنين باستحالة عمل زفة للعروسين، فلن يشارك فيها أحد. وتم الزفاف، وانتقل «رفاعة» إلى بيت «ياسمينة».. بدت الفتاة فى ثوب العروس آيه فى الجمال، وإلى جانبها جلس «رفاعة» فى جلباب حريرى مهفهف وعلى الرأس لاسه مزركشه وفى القدمين مركوب فاقع الاصفرار. جلس العروسان على كنبة يقابلها فى الناحية

الأخرى الفراش المورّد، وقد لاحت في مرآة الصوان صورة الطشت والإبريق تحت الفراش. ومن الطبيعي أن تنتظر العروس من رجلها هجوما أو في الأقل تمهيدا للهجوم المنتظر وهو مـا لم يحدث وقد لبث يـردّد البصر بين الفانوس المدلّى من السـقف والحصيرة الملونة.. وقد حاولت بأكثر من وسـيلة أن تسـتثيره.. وأخيرا سألته: ماذا عندك لي؟ فكان جوابه: السـعادة الحقيقية.. واتجهت بخطوات ثقيلة نحو الفراش وجلست على حافته في فتور، ورنا إليها بحنان وهو يقول لها إنها كجميع أهل حينا لا تفكر إلا في الوقت الضائع.. ثم طلب إليها أن تأخذ راحتها وتنام على السـرير، لأنه سينام على الكنبة.. وأدارت وجهها إلى الحائـط وقلبها يحترق غيظا وقلقا.. أمـا «رفاعة» فقام إلى الفانوس وأخفض ذبالته، ثم نفخه، فانطفأ وساد الظلام.

* * *

ومضى «رفاعة» في حركة دائبة بعد أن انقطع عن الدكان ومضى يدعو من يصادفه من «آل جبـل» إلى أن يثـق فيه كي يخلصّه من عفريته، فيحقق بذلك سـعادة صافية لم يحلم بهـا من قبل وتهامس الأهل بأن «رفاعة» خف عقله وأصبح في زمرة المجذوبين.. وتراءى له أن يعرض خدماته على «أم بخاطرها» التي اسـتنكرت أن يكون عليها عفريت شـرير، فأكـد لها أن تلك هي الحقيقـة لأنها لا تخلو من طمع يحملها على الاتجار بالمرضى، فلو تخلصت من سيدها لو هبت الخير بلا ثمن!!.. وقد قابلت «أم بخاطرها» قوله بالضحك.. وقد تداول ما دار بينهما من حديث بين الأهل والمعارف.. ولم يتردد «رفاعة» في أن يقول لأبيه أنه نفســه في حاجة إلى «رفاعة»، وأنه من البرّ أن يبدأ به.. فهز الرجل رأســه في كمـد مـرددا: أما كفاك أن جعلتنا أحدوثة الحيّ.. ثم مضى «رفاعة» إلى إحدى الغرز التي يعرف مرتاديها – الذين تطلعوا إليه بغرابة واسـتقبلوه بسخرية وكلمات جارحة حتى إن «زيتونة» قال له: «على زوجتك عفريت اسمه «بيومي»، فخلصها منه إن استطعت» ورغم ذلك لم يغضب «رفاعة».. وكان جوابه – هو أن يقول لهم: إنه لا يريد لهم غير السـعادة – وقد ووجه بتسـاؤل موجّه إليه عمّن أخبره بأنهم غير سـعداء؟!.. وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه في رثاء وعاد إلى بيته بفؤاد كسير.. غير أن «ياسمينة» استقبلته بابتسامة هادئة بعد أن كفت عن لومه يائسـة، ووطنت نفسـها على الصبر على تلك الحياة التي لا تدرى على أي وجه ستنتهي.

ودق الباب، فإذا بالقادم «خنفس» ليسأله: ماذا قلت عن الوقف فى غرزة «شلضم»؟ فكان جواب «رفاعة» فى هدوء: قلت إن جدنا يود لنا السعادة، فلما سأله عن الوقف - وهو قابض على منكبه بيد شديدة - كان جواب «رفاعة» وقد أنهكه الآلم: لا يعنينى الوقف فى شئ، لأن السعادة التى لم أحققها بعد لأحد هى شئ آخر غير الوقف، وغير الخمر، وغير الحشيش. قلت ذلك فى كل مكان بالجبل، وسمعنى الجميع وأنا أقوله... فهزه مرة أخرى وهو يهدده ثم دفعه فهوى على ظهره، وهرعت إليه «ياسمينة» لتواسيه، وتدلك له منكبه من الوجع - عند خروجه لقيته امرأة من غير أهل الحى، بادلته التحية فى احترام وتوقير، وقالت له بضراعة إن ابنها ممسوس وهى ترجو أن يخلصه، وكان «رفاعة» «كآل جبل» يحتقر أهل الحارة فاستنكف أن يضع نفسه فى خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء آله له.. فسألها: ألا توجد كودية فى الحارة؟ قالت المرأة بصوت باك: «بلى ولكنى امرأة فقيرة.. رق لها قلبه، كما أسره لجوؤها إليه - بينما لم يكن من آله إلا الهزء والاحتقار - نظر إليها فى تصميم وهو يقول لها إنه طوع أمرها.

* * *

وقد أعقب ذلك بأن انتقل من حى «جبل» إلى حىّ آخر.. وجد فيه من يستجيب له، ومن يقبل عليه، فنشط إلى عمله.. وراح يغرى «ياسمينة» بأنها ستكون أجمل وأفضل عندما تقهر ما يملؤها من الغرور، فليس «آل جبل» بخير أهل الحارة. إن خير الناس أطيبهم.. وها هم هؤلاء الناس الطيبّون يقبلون عليه، ويبرءون على يديه من العفاريت. كان جواب «ياسمينة» أن كل الناس هنا يعملون بأجر إلا «رفاعة».. ولم يجادلها «رفاعة»، وكان كلّ ما قاله «لولاى ما وجد الفقراء من يشفيهم. إنهم يقدرون الشفاء ولكن لا يملكون ثمنه، وأنا ما عرفتُ الأصدقاء حتى عرفتهم» والحق أن «رفاعة» لم يلقَ من عمره أسعد من هذه الايام. كان يدعى فى الحى الجديد بالمعلم «رفاعة»، وكانوا يدعونه بها فى إخلاص ومحبة، حيث عرف أنه يخلص من العفاريت ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده.. وكان لكل من برىء على يديه قصة يرددها.

وقد اصطفى «رفاعة» من مرضاه أربعة رجال هم «زكى» و«حسين» و«علىّ» و«كريم» - اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة. لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الحب من قبل أن

يعرفه.. كانوا قبل أن يعرفوه من أسوأ الخلق، فانقلبوا – بعد معرفته – رجالا ذوى قلوب كبيرة، يجتمعون فى الخلاء عند صخرة «هند» حيث الهواء والخلاء، فيتبادلون أحاديث المحبة والمودة والصفاء، ويتطلعون إلى طبيبهم بأعين تفيض بالحب والإخلاص، ويحلمون جميعا بسعادة تُظل الحارة بأجنحتها البيضاء. وبدت الغبطة فى الوجوه.. وابتسم إليهم «رفاعة» قائلا: «ستكونون مفاتيح السعادة فى حارتنا».. وعند عودتهم إلى حيهم وجدوه يضئ بأنوار عرس فى أحد الربوع، ورأى كثيرون «رفاعة» فأقبلوا عليه مصافحين، وتغيَّظ فتوة الحى، فقام من مجلسه وهو يسب ويلعن، ويصفع هذا وذاك ثم تحول إلى «رفاعة» سائلا: «ماذا ترى فى نفسك يا ولد ؟» فقال «رفاعة» فى رقة: «صديق المساكين يا معلم».. فصاح الرجل: «إذن امشى كما يمشى المساكين لا كعريس الزفة. أنسيت أنك طريد حى، وزوج «ياسمينة»، وكودية زار؟».. وبصق فى تحرش. وتباعد الناس. وساد الوجوم. ولكن زغاريد الفرح غطت على كل شئ.

* * *

ورغم ما أبدته «ياسمينة» من إخلاص «لرفاعة»، ومن توبة عما كانت عليه.. فإنها قد تسللت من وراء ظهره إلى الفتوة «بيومى» الذى كان ينتظرها خلف باب البيت الخلفى، فى خفية من الأمر حيث يتم اللقاء ثم تعود من حيث كانت إلى بيتها فى ستر من أمرها فى ذهابها ثم فى عودتها.

* * *

كان لابد «لبيومى» أن ينقل إلى «الناظر» كل ما يجرى فى الحارة متصلا «برفاعة» وأتباعه المخلصين، وقد ألمح «بيومى» إلى ما وراء ذلك من خطر يمسُّ الوقف إذ أن «رفاعة» يردِّد أنه تلقىَّ من «الجبلاوى» ما هو قائم به. وخَلَصَ إلىَ أن «رفاعة» مشاغب معتوه من «آل جبل» يزعم أنه اتصل بالواقف.. واتفقا – «الناظر» و«بيومى» – على ضرورة الإسراع بالعمل، فكان أن دعا «بيومى» إليه كل الفتوات.. واتفقوا فيما بينهم على أن يتولى «بطيخة» فتوة الحارة التى يسكن فيها «جبل» مهمة التأديب. وحينما لقى الفتوة «رفاعة» فى اليوم التالى أمره بأن يعود إلى بيته ولا يخرج منه وتهدده – فى حالة العصيان – بكسر رأسه.. لكن «رفاعة» لم يرضخ، ولم يبد القبول، بل راح يجادل.. فما كان من «بطيخة» إلا أن لطم «رفاعة» لطمة دفعته إلى جدار الربع مترنحا.. ورأت امرأة الواقعة فانطلق «صواتها»

حتى ملأ الحارة، وتبعها نسوة أخريات، وارتفعت أصوات استغاثة من أجل «رفاعة»، وفى لمح البصر جرى نحو المكان كثيرون، وما لبث أن ازدحم الموقع بمحبِّى «رفاعة» من الرجال والنساء، ودهش «بطيخة» ودفعه الموقف أن يعاود لطم «رفاعة».. فتصايح الواقفون فى انزعاج، واعتراهم انفعال شديد.. وتعالت احتجاجات.. ثم أخذ الطوب يتساقط أمام «بطيخة» ليمنعه من فعل شئ ووجد الفتوة نفسه فى مركز حرج، كان الموت أهون عليه مما هو فيه، وكان الهجوم يهدد بالقضاء عليه تحت وابل الطوب، وكان فى السكوت الإجهاز على فتونته.. واستمر تساقط الطوب وتمادى القوم فى تحديهم.. وكان «رفاعة» هو الذى أنقذ الموقف، فقد اندفع حتى وقف أمام «بطيخة» ولوّح للقوم بيديه حتى ساد السكوت.. وطلب إليهم أن يتفرقوا، وفهم الناس أنه يريد أن ينقذ كرامة الفتوة حلا للأزمة، فتفرقوا.. حتى أقفر الحى..

* * *

وكان لما حدث رد فعله لدى «الناظر»، حتى لا يدخل فى عقيدة أهل الحارة أن التكافل يضمن لهم الصمود أمام الفتوات، لذلك وجب القضاء على «رفاعة».. لأنه ليس بالدرجة التى يبدو عليها من الضعف فوراءه محبون استطاعوا إنقاذه رغم أنف الفتوة.. وفكر «بيومى»، فلم يجد بدا من العدول عن الاعتماد على «بطيخة»، فأرسل فى استدعاء «خنفس» إلى مقابلته فهو فتوة «آل جبل» ولا يمكن المساس «برفاعة» إلا عن طريقه. وقد لقى «عم شافعى» «خنفس» وهو فى طريقه إلى «بيومى»، اعترض سبيله مستعطفا بأنه «فتوتنا وحامينا.. فلا تتخل عن رفاعة» فكان جواب «خنفس»: «إنى أعلم الناس بما تقتضيه مصالح آل جبل» ثم مضى إلى معلمه استجابة لدعوته.. حيث دعى «رفاعة» لمقابلتهما، ودار بينه وبينهما حوار عجيب، كان ما قاله الفتوة هو الهزء والسخرية، واتسمت إجابات «رفاعة» بالحكمة والهدوء. وكان كل ما قصد إليه «خنفس» هو أن يثبت عليه أن قصده هو مال الوقف.. فلما أكد نفيه لذلك وإن غايته ليست إلا سعادة أهل الحارة.. متسائلا عما يدعوهم إلى كراهتهم للسعادة وهى بين أيديهم.. فصاح فيه «بيومى» إنها ملعونة تلك السعادة التى تجئ من مثله.. وطلب إليه بأن يقلع عما هو ماض فيه من خداع.. ولما خرج «رفاعة» – تجرأ «خنفس» بأن طلب من «بيومى» أن يدعه له.. لكن «بيومى» علّق بقوله إن «لرفاعة» محبين كثيرين، ونحن لا نريد مذبحة.

* * *

تشـاور «رفاعـة» مع أصحابه الأربعة بعد أن قص عليهم مـا جرى. بادرت «ياسمينة» تحذرهم بقولها: إنه لا يجوز الاستهانة بأمر «بيومى». فلما أجابها الصحاب بأن «الرفاعة» أصدقـاء هزموا «بطيخة» فاختفى مـن الحارة كان تعليق «ياسمينة» إن ذاك كان «بطيخة» لا «بيومـى»، وأنهم إذا تحـدوا «بيومى» فقل عليهم السـلام.. وكان جواب «رفاعة» أنه ورفاقه لا يفكرون فى العراك وأن الذى يشـقى لإسـعاد الناس لا يهون عليه سفك دمائهم. وإذ استمعت «ياسمينة» إلى ذلك القول وجهت حديثها إليه بأن خير ما يفعل هو أن يرحم نفسـه مـن ذلك العناء.. انفعل «زكى» محتجا قائلا إنهم لـن يتركوا هذا العمل وإن تركوا الحارة.. ولكن «رفاعة» حسم الموقف بقوله: لا أحب أن أهجر حارتنا.

دق الباب فإذا القادم «عم شافعى» و«عبده». تلقاهما «رفاعة» بالعناق، جلسا ووجهاهما ينطقـان بما يحملان من أنباء «مزعجة»: فقد تخلّـى عنه «خنفس»، وحياته فى خطر، وأعـوان الفتوات لا يكفون عن الحومان حول البيت.. وتأوه «رفاعة» وهو يردد: ماذا فعلنا مما نسـتحق عليه العقاب ؟! وكان تحذير «عم شـافعى» لابنه بأنه هالك إن غادر البيت وليس فى أمان إن بقى فيه..

تسـرب الخوف إلى القلوب، واقترح «كريم» عليهم أن يهربوا إلى بيته من فوق الأسطح وهناك يفكرون فيما ينبغى عمله. أكمل «عم شـافعى» الخطة بقوله: ومن هناك تهربون من الحارة ليلا.. ثم قائلا «لرفاعة» إنه يسـتطيع أن يسـتأنف عمله فيما وراء الخلاء إن شاء.. وأكمل «كريم» خطته بأن المعلم «شـافعى» وزوجه يبقيان قليلا ثم يذهبان إلى ربع النصر، وتخرج «ياسمينة» إلى الجمالية كأنما تتسـوق، وعند عودتها تتسـلل إلى مسـكنه.. وارتاح الجميـع إلى الخطـة.. ومضى «رفاعة» يفكـر فى حاله بقلب حزين.. وقـد عانق «رفاعة» والديـه.. ثم التفـت إلى «ياسمينة» طالبا إليها أن تحبك الملاية والبرقع كى لا يعرفها أحد مضيفا قوله: لا أطيق أن تمتد لك يد بسوء.

* * *

غادرت «ياسمينة» الربع ودعوات «عبده» تتردد فى أذنيها بأن يحفظها الله – ومضت نحو الجمالية دون أن يسـاورها التردد وإن ملأها الخوف.. ولكنها وجدت الأمان أخيرا فى المنظرة بين يدىْ «بيومى»، فبادرها يسـألها عما وراءها فبادرت تخبره بأنهم هربوا من فوق الأسـطح إلى بيت «كريم»، وسيغادرون الحارة عند الفجر.. قالت تستعطف «بيومى» إن «رفاعة» أنقذها يوما من الهلاك فكان جواب «بيومى»: وها أنت ذى تسـلمينه للهلاك. شـعرت بقلق موجع كالمرض.. ولكنها قالت «لبيومى» إنها فعلت ما فعلت لأنه أغلى من حياتك، وأنها لو عرضوا

عليها بيت الواقف من دونه ما قبلت، ولم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام فقامت وقام ليودعها حتى تسللت من الباب الخلفي، ومضت إلى بيت «كريم»، فجلست بجانب زوجها.. وهى تنظر إليه برثاء.. ثم أقبلوا على العشاء فالتفت «رفاعة» إلى «ياسمينة» ليقول لها. أنت لا تأكلين ولا تصغين، تقلّص قلبها خوفا بيد أنها تغلبت على انفعالها لتبدو طبيعية.. وقال «رفاعة» بيقين إن المعركة لن تنتهى، وإن «رفاعة» ورفاقه ليسوا ضعفاء كما يتصور الآخرون، إنما هو ورفاقه قد نقلوا المعركة من ميدان إلى ميدان آخر يتطلب شجاعة أسمى وقوة أشد، وواصلوا العشاء وهم يفكرون فيما سمعوا وقد بدا «رفاعة» لأعينهم مطمئنا قويا بقدر ما بدا جميلا وديعا.

* * *

تغلب الإخوان على ما هم فيه، ولكن «ياسمينة» كانت فى عذاب تدور بها دوامة الفكر حتى ليخيل إليها أن عينيها ستفضحانها.. وبتقدم الوقت أخذ الصمت يبتلع الضوضاء رويدا رويدا، وأحست «ياسمينة» بأنها قد دهمتها كراهية مفاجئة لهؤلاء الرجال الذين تحس أنهم على نحو ما يعذبونها.. وفجأة قال «كريم»: آن لنا أن نذهب، هنا ركب الجزع «ياسمينة»، كانت تتساءل فى نفسها: ماذا يكون الأمر لو تأخر «بيومى» عن موعده ؟.. قام الرجال، تسللوا من باب المسكن واحدا فى إثر آخر، وصعدوا السلم. بدا السطح أرقّ ظلمه.. تتابعوا داخلين، وكان آخرهم «زكى» الذى أحس حركة وراءه فالتفت نحو باب السطح ليرى أربعة أشباح.. تسمَّر الجميع، غمرتهم شتائم الفتوات: «جابر». «خالد». «حندوسة». ندت عن «ياسمينة» آهه، وأفلتت من يد «رفاعة» ثم جرت نحو باب السطح دون أن يعترضها أحد من الفتوات. وأدرك الجميع خيانة المرأة. وفى لحظة أحاط الفتوات بالجميع، و«بيومى» يتفحصهم عن قرب واحدا بعد آخر متسائلا: أين «رفاعة» حتى تبيِّنه فقبض على منكبه بيد من حديد وركز الفتوات كل همهم فى القبض على «رفاعة»، تاركين الآخرين على يقين من أنهم لا خوف منهم فلن ينبس أحد منهم بكلمة وإلا هلك.. وقد سار «رفاعة» مع جلاديه مستسلما للمقادير، وقد غشيه الظلام والحيرة والشر الذى يتهدده. وانتهوا إلى الحارة، فقطعوا الحىّ الذى لم يبق فيه مريض بفضل «رفاعة».. ثم تقدموا نحو حى «آل جبل».. ثم مضوا نحو الخلاء.. وسار الركب حتى خرج إلى الخلاء، فأكملوا مهمتهم.. وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة. ثم مضت الأيدى تحفر الأرض بقوة فى الظلام.

* * *

ما إن غادر القتلة المكان عائدين إلى الحارة متسترين بالظلام حتى نهض أربعة أشباح من موضع غير بعيد من موقع الجريمة، بكاؤهم مكتوم، وحزنهم دفين، ولكنهم نهضوا لعمل جاد.. بحثوا عن دمه وعن جثمانه، ليزيلوا الرمال عن الجثمان، وتعاونوا على استخلاص الجثة من الرمال، قاموا بها في رفق، وحثوا بعضهم البعض على الإسراع بعد أن ردموا الحفرة وساروا بالجثة إلى باب النصر، وأخذ الظلام يخف فوق الجبل، ويشف على السحاب، وتساقط الندى فوق الجباه والدموع. سار بهم «حسين» على طريق مقبرته حتى بلغوها، وتمكنوا من مواراة جسد الغالي، والضياء ينتشر رويدا حتى تراءى للأعين الجثمان المسجىّ وأيديهم الملطخة بالدم وأعينهم المحمرة من البكاء. وحملوا الجثة وهبطوا بها إلى جوف القبر وهم يناجون صاحبهم: كانت حياتك حلما قصيرا، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء.. ولكن حارتنا أبت إلا أن تقتل الحبّ والرحمة والشفاء ممثلة في شخصك، فقضت على نفسها باللعنة حتى آخر الزمن.. وعندما غادروا المقبرة متجهين نحو الخلاء كان النور يصبغ الآفاق بمثل ذوب الورد الأحمر.

* * *

اختفى أصحاب «رفاعة» من الحارة، اتخذوا لهم مقاما من كوخ في الخلاء. كان فراق «رفاعة» بالنسبة لهم أشد من الذبح على قلوبهم وزاد من عذابهم تخليهم عنه وقت الشدة: ومن ثم فقد امتلأت قلوبهم عزما على أن ينزلوا العقاب بقاتليه، وهذا ما صمم عليه علىّ بالذات، وذات صباح أعلنت «عبده» كما أعلن «عم شافعي» أن ابنهما قتل وراحا يبكيانه بل وأعلنا أن «خنفس» – والمفترض فيه أنه حاميه – كان ضمن قاتليه، مما أثار «خنفس» فجاء ينكر ويرغي ويزبد وإن كان قد انصرف عن الحىّ تاركا للخبر أن يذيع وينتشر ممّا أذهل الناس، وراح الأبوان يبحثان عن الجثمان. فرأيا آثار الدماء والحفر وإن لم يجدا الجثمان.. وردد الناس في دهشة كيف يقتل «رفاعة» وماذا فعل حتى يقضى عليه بالقتل بينما «ياسمينة» مقيمة في بيت «بيومى». ومضى الفتوات هم الآخرون يبحثون عن الجثمان فلم يجدوه مما أغاظ «بيومى» وجعله يحس بفداحة خطئه إذ ترك الصحاب يفلتون من قبضته. واشتد التوتر بحيى «رفاعة» و«جبل» مما زاد من اندفاع الفتوات في العدوان، وفي ليلة تغيَّب «بيومى» عن بيته فتسلل أهل زوجته إلى بيته ليعتدوا على «ياسمينة» التي شعرت بهم ففرت هاربة وظلت تعدو حتى تقطعت منها الأنفاس وظلت لفترة وهي كذلك، وحينما نظرت أمامها رأت عن بعد نورا ضئيلا منبعثا من كوخ، فسارت نحوه آملة أن تجد

عنـــده مأمـــوى.. وكان كما ظنت كوخا فاقتربت من بابه وهى تنادى أهله.. وفجأة وجدت نفســـها أمام أصدقاء «رفاعة» الحميمين: «على» و«زكى» و«حســـين» و«كريم»، فتســـمرت بالأرض وهى تقلـب فى وجوههم بصرا زائغا تراءوا لها جدارا يعترض مطاردا فى كابوس، وتلقوها باشمئزاز، ولم ينصتوا إلى شـــىء، مما تّدعيـــه أنها بريئة وطلبت إليهم أن يدعوها تذهب.. فصاح بها «علىّ» بأنها ســـتذهب بالفعل ولكن إلى جوف الأرض، ولم يتركوها إلا وقد سكتت إلى الأبد..

وفى صباح اليوم التالى وجدت «ياسمينة» جثة هامدة ملقاة أمام بيت «بيومى»، وانتشر الخبر.. فجرى الناس نساء ورجالا نحو بيت الفتوة ليروا حقيقة ماسمعوه. وفتح باب بيت «بيومـــى»، واندفـــع منه كالثور الهائج ينال بنبوته كل من يصادفه، وهو يســـبّ، ويلعن، ويهدد، ويتوعد، وفى اليوم التالى هاجر «عم شافعى» وزوجه من الحارة، ولكن آثار «رفاعة» ظلت باقية بما حقق للكثيرين من شفاء بدن، وصفاء نفس، وحياة فى سعادة..

تفرق أصحاب «رفاعة» واتخذ كل منهم منهجا سار فيه بإيمان صادق، وتناقلت الحارة أن جثـــة «رفاعة» حملها «الجبلاوى» بنفســـه فواراها التراب فى حديقـــة البيت الكبير.. واختفى بعد ذلك عدد من الفتوات الواحد بعد الآخر.. ثم استيقظت الحارة ذات ليلة على حريـــق هائل يلتهم بيت أحد الفتوات.. ولم يرض ذلك «بيومى»، فخرج على رأس رجاله مصممـــا علـــى أن يبادر بالضرب قبل أن يســـتفحل الأمر. هنا ظهـــر «علىّ» لأول مره ومعه رجال أشداء على رأس الثائرين وما أن رأى أولئك «بيومى» قادما حتى انهال الطوب أسرابا كالجراد على رءوس «بيومى» ورجاله، فتفجرت الدماء، وهجم «بيومى» بجنون وهو يصرخ كالوحش، ولكن حجرا أصاب أعلى رأسه فتوقف، ورغم القوة والفتونة.. ترنح، وسقط فى دمائه، وسرعان ما فر الأعوان واكتسحت أمواج الغاضبين بيت الفتوة حتى ترامت أصوات الكســـر والتحطيم إلى بيت «الناظر».. عند ذلك أرســـل «الناظر» فـــى طلب «علىّ» فذهب لمقابلته، وتوقف رجاله عن الانتقام..

وتمخضـــت المقابلة عن عهد جديد فى الحـــارة جرى الاعتراف بالرفاعيين كحى جديد، فيمـــا له من حقـــوق وامتيازات، ونصب «علىّ» ناظرا على وقفهم يتســـلم نصيبهم من الوقف ويوزّعه عليهم على أســـاس المساواة الشاملة وعاد إلى الحارة جميع المهاجرين الذين فرُّوا فى فترات سابقة، وحظى «رفاعة» فى موته بما لم يكن ليحلم به فى حياته من التكريم والإجلال

والحب حتى صار قصة باهرة يرددها كل لسان، وتتغنىّ بها الرباب وبخاصة رفع «الجبلاوى» لجثمانه ودفنها فى حديقة البيت الكبير.. لكن الرفاعيين اختلفوا فى أشياء كثيرة، من ذلك اصرار بعضهم على أن رسالة «رفاعة» ينبغى أن تقتصر على مداواة المرضى واحتقار الجاه والقوة، وتغالى البعض فتجنبوا الزواج.. أما «علىّ» فتمسك بكل حقوقه فى الوقف، وتزوج، ودعا إلى تجديد حىّ «رفاعة».. واستبشر الناس خيرا، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة..

* * *

(٤)
قاسم

ومرت الأعوام طويلة – قبل أن يولد «قاسم» اليتيم ويتكفل به عمه الرجل الطيب: «عم زكريا» – وكانت أعواما جافة قاسية، ازداد خلالها حال الحارة سوءا، وازداد ناظر الوقف: «السيد رفعت» جشعا وطغيانا، وتضخمت سطوة الفتوة الأكبر «لهيطة» وسطوة أعوانه فتوات الأحياء الذين يستأثرون بالريع وليس للمتذمرين سوى الضرب والأذى والعدوان.

نشأ «قاسم» فى هذا الجو يتيما فقيرا وحيدا، وقد رزق عمُّه بطفل هو «حسن» استبشر به خيرا، وعاش «قاسم» ينظر إلى البيت الكبير ويتطلع إليه مفاخرا بجده وبمقام جده.. كما ينظر إلى بيت «الناظر» فى دهشه وإعجاب ويرمق الثمار فوق الأشجار فى الحديقة فى رغبة واشتهاء إلى أن وجد الباب ذات يوم مفتوحا والحارس متغيبا فتسلل إلى الحديقة، وانبهر بعمود الماء المتصاعد من نافورة الفسقية، فما كان منه إلا أن خلع ثيابه وألقى بنفسه فى الماء. وهنا كانت الكارثة إذ رآه «حضرة الناظر»، وفر «قاسم» هاربا، و«عم عثمان» يتابعه إلى أن قبض عليه.. وتدخل أولاد الحلال حتى خلّصوه من قبضته ومضت به زوجة عمه إلى الربع على كتفها «حسن» وجارة «قاسم» من يده وهو يشهق باكيا.

* * *

وكان على «قاسم» وقد بلغ العاشرة من عمره أن يصحب عمَّه فى عمله فى التجول بعربته، سعد «قاسم» بهذه المشاركة وتحمّس لها، وراح يطوف مع عمّه فرحا بما يرى

من الأحياء، ويكتشف من الأماكن، حتى وصلا إلى الخلاء، بعد أن مضيا فى تجوالهما من الحسين إلى بيت القاضى، ومن بيت القاضى إلى الدراسة، و«قاسم» يتطلّع بدهشة إلى العابرين والدكاكين والجوامع حتى انتهيا إلى سوق المقطم فراح الغلام يتأمله بإعجاب متسائلا: أهذا سوق المقطم حقا؟ إلى هنا هرب «جبل». وهنا ولد «رفاعة».. فأجابه عمه بلا حماس: لا لنا فى هذا ولا ذاك، وقال «قاسم»: لكننّا جميعا أولاد «الجبلاوى»، فلماذا لانكون مثلهم ؟.. ووجّه الرجل عربته نحو كوخ من الصفائح على هيئة دكان جلس أمامه عجوز ذو لحية بيضاء.. هو المعلّم «يحيى»، وتصافح ثلاثتهم. وعندما عَرف «يحيى» من يكون الغلام أجلسه إلى جواره وراح يداعبه ذاكرا له أن أباه كان صديقه، وتناول الرجل حجابا ثم علّقه بعنق الغلام طالبا إليه أن يحتفظ به فيحفظه من كل سوء قال له عمُّه إن «عمّ يحيى» كان من حارتنا ثم غضب عليه الفتوة فآثر الهجرة – قال «قاسم» بدهشة إنه فعل كما فعل «عم شافعى» والد «رفاعة»، فضحك «يحيى» معلّقا: ما أعرف «أولاد حارتنا» بالحكايات..! وراح الثلاثة يتذكرون «رفاعة» وكان رأى «يحيى» أن «رفاعة» لم يمت يوم مصرعه، ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة!. ونهض «زكريا» مع ابن أخيه فأمامهما فى العودة مشوار طويل، و«يحيى» يودّعهما بأن يطلب إلى «زكريا» أن يحضر الغلام معه كلما جاء..

* * *

ولم يلبث «قاسم» أن ترك رفقة عمّه عندما كبر «حسن» ابن عمه وكان له أن يصحب أباه، أما «قاسم» فقد امتهن رعى الغنم، يمضى بها بعد أن يتسلمها من أصحابها إلى الخلاء يرعاها فى الصحراء لتطعم من خشاش الأرض، ويتركها هو لحريتها، وإن كانت هى التى تؤنسه فى وحدته وأتاحت له أن يفرغ إلى نفسه، يتأمل ويفكر فيما تلقاه الغنم منه من عطف ورعاية وما يلقاه هو من أهل الحارة من نظرة الاستعلاء على الرعاة.. فى حين أن الراعى يمارس عملا شريفا مشرفا هو خير من عمل البلطجية والمتسّولين، فضلا عما يتيحه له الخلاء من هواء نقىّ، وأنس إلى المقطم، وصخرة «هند»، وقبة السماء.. ولم يكن يوم يمضى دون أن يزور «قاسم» معلّمه «يحيى»، فهو يحبه، ويسعد بأحاديثه، ووجد فيه رجلا محيطا بكل الأخبار – حاضرها وماضيها.. وكانا يتناقشان ويقارنان بين «رفاعة»

و«جبل» – أولهما زهد فى النساء، وثانيهما تزوج وعاش حياته – الأول حاول استخلاص حق قومه والثانى آثر أن يجعل هدفه تخليص النفوس، وطهارة الروح.. فتساءل «يحيى» عما إذا كان «قاسم» يفضّل «جبلا» على «رفاعة».. فتردّد طويلا ثم قال: – كلاهما كان رجلا طيبا، وما أقل الطيبين فى حارتنا: «أدهم» و«همّام» و«جبل» و«رفاعة»، أولئك هم كل حظّنا من الطيبة، أما الفتوات فما أكثرهم..!

وكان «قاسم» – فيما بينه وبين نفسه – يتساءل عن جده «الجبلاوى»: ترى كيف حاله فى عزلته.؟ هل يذهب ويجىء، أم أقعده الكبر ؟.. وعند الأصيل ينهض متناولا عصاه وهو يصفّر صفيرا منغما يدعو به الغنم لتجتمع وتتحرك قافلتها نحو العمران.. يمضى يسلم خرافه إلى أصحابها من الربوع المختلفة حتى يصل إلى النعجة التى تملكها «ست قمر» والتى تقيم فى بيت مكوّن من دور واحد ذى حوش تتوسطه نخلة، فتتلقاه الجارية «سكينة» وتتسلمها منه، ويمضى إلى حال سبيله، وذات يوم صادف عند عودته صاحبة البيت عائدة من الحارة وطالعته من برقعها عينان سوداوان يندیان بالحنان – تنحىّ جانبا غاضا بصره، وتبادلا تحية المساء، ثم داعبته بأن النعجة تسمن يوما بعد يوم.. والتفتت «ست قمر» نحو «سكينة» طالبة إليها أن تحضر له عشاء.. وفى المساء كان يخرج مع ابن عمه وصديقهما «صادق» ليمضوا إلى قهوة «دنجل» ليستمعوا إلى حكايات الشاعر..

* * *

وذات يوم وهو يعود بالنعجة ويسلمها إلى «سكينة» إذا بهذه الأخيرة تطلب إليه أن ينتظر فعندها له شىء.. وغابت وتركته لأفكاره حتى جاءت بلفافة أعطتها له وهى تخبره بأنها «فطيرة بالهنا والشفا» فتلقاها مردّدا قوله: «اشكرى السيدة الكريمة» فجاءه صوتها من وراء النافذة مردّدا برقة: «الشكر للمولى يا ابن الطيبين» ومضى عنها سعيدا منتشيا مرددا وصفها الجميل له بأنه ابن الطيبين.. ولم يكد يمضى خطوات حتى رأى رجلا يجرى مهرولا زاعقا صارخا معلنا ضياع حافظة نقوده التى بها كل ماحصل عليه من أجر عمل كبير.. وتجمّع الناس على صراخ الرجل من كل حىّ. وعلم «قاسم» بأن الرجل الذى يصرخ يعمل «منجدا» وكان يعمل فى بيت «الناظر».. واتجه إلى الرجل أكثر من فتوة من فتوات الحارة.. والرجل يصرخ بأن كل ما معه سرق.. مبلغ عشرين جنيها بالتمام والكمال «والله يخرب بيت

أولاد الحرام» وزعق «جلطة» فتوة «آل جبل» بأن المسألة متعلقة بسمعة الحارة وأى عيب سيلبس فى النهاية الفتوات وراح بعض الفتوات يشككون فى صدق الرجل، وكل فتوة ينفى عن ربعه وجود أى لص – مما آثار مناقشات وملاحاة فيما بينهم وراحوا يتبادلون الشتائم واللعنات وكل منهم يتوعد الآخرين.. حتى تدخل «سوارس» بعينين محمرتين من الغضب طالبا من الجميع الكف عن النقاش وأن «التفتيش سيكشف عن اللص» – ولكن ثار خلاف بأى الأحياء تكون البداية، وكاد الخلاف يستفحل لولا أن علا صوت «قاسم» طالبا إلى الجميع أن ينتظروا «فلن يكشف الدم عن النقود المفقودة» معلنا أن عنده حيلة تردّ بها النقود إلى صاحبها دون عراك.. وهى أن ينتظر الجميع حتى يستحكم الظلام – وهو قريب – لن تضاء شمعة واحدة فى الحارة. ثم يسير الجميع من أول الحارة لآخرها كيلا تنحصر الشبهة فى حى دون آخر. وفى أثناء ذلك سيجد حائز النقود فرصة للتخلص منها فى الظلام دون أن يفتضح أمره، فيعثر على النقود، وتنجو الحارة من شر العراك..

وعندما أعلن عن قبول الحل الذى اقترحه راعى الغنم سرت فى القوم همهمة ارتياح، وراح الجميع يترّقبون هبوط الظلام.. ومع حلول الظلام دبّت الحركة بين الأشباح فمضوا فى طريقهم المرسوم، ثم تفرقوا من بعد كل إلى حيّه، ثم أضيئت المصابيح وراح القوم يفحصون الأرض حتى تعالى صوت بالعثور على المحفظة.. فتسلمّها صاحبها، ومضى يجرى قاصدا حيه لايلوى على شىء.. وعندما ذهب «قاسم» ورفيقاه إلى القهوة استقبلهم الفتوة «سوارس» بترحيب..!

* * *

عندما دخل «حوش قمر» – فى صباح اليوم التالى – ليأخذ النعجة.. إذا بصرير باب الحريم يُسمع وهو يفتح وصوت الست تبادله تحية الصباح ثم تقول له إنه صنع بالأمس خيرا كبيرا للحارة.. فكان جوابه أن الله هو الهادى.. فقالت له فى نغم وشى بإعجابها أنه علمهم أن الحكمة أجلّ من الفتوة، وأنها رأته يرعى أولاد الحارة كما يرعى الغنم – ثم دعت له بالسلامة، فمضى يضم إليه أغنام قافلته فى طريقه إلى المرعى، وكان كلما مر بحىّ تلقوه بالترحاب حتى الفتوات ردوا عليه تحياته – وكانوا يتجاهلونها من قبل.. ومضى فى طريقه المعتاد وجالت عيناه بين صخرة «قدرى» و«هند» وبين البقاع التى جرت بها مصارع

ثم مضى إلى كوخ «يحيى» الذى أشاد بما فعله بالأمس. ثم راح يحذِّره بأن يتجنب المعجبين خشـية أن يستفز الفتوات.. فلما تعجب مستنكرا أن يستفز مثله الفتوات... تنهد العجوز قائلا: «ومن كان يتصور أن يغدر غادر «برفاعة»؟»

فتساءل «قاسم» بدهشة عن وجه التشابه بين «رفاعة» العظيم وبينه هو..

وعند العصر كان يجلس فى الظل الممدود وراء صخرة «هند» عندما رأى جارية السـيدة «قمـر» عنـد رأس النعجة تداعب ذقنها – حيَّاها بإبتسـامة فقالت له إنها فى طريقها إلى الدراسـة ورأت أن تمر من عنده اختصارا للطريق.. وجلست فى ظل الصخرة ومضت تقول إنها عندما شـهدت صنيعه بالأمس آمنت بأن أمه دعت له من قلبها قبل وفاتها، فتسـاءل مبتسـماً: «وأنـت ألا تدعـين لى؟» فقالت وهى تـدارى نظرة ماكرة: «لمثلـك يُدعى ببنت الحلال» فكان جوابه تساؤلا عمَّن ترضى براعى غنم – فأجابته بأن الحظ يصنع العجائب وأنـه اليوم بمنزلة الفتوات دون حاجة لسـفك دماء – ثم قالـت فى مكر: هل أدلك على طريق عجيب؟ جرِّب بختك واخطب سيدة حينا – فقال بصوت متهدج: «كان زوجها من الأكابر، ولسـت إلا راعى غنم فكان جواب محدثته أن الحظ إذا ضحك ضحك كل شـىء حتى الفقر» ولما أبدى خشيته من أن يغضبها طلبه كان جوابها: «لايدرى أحد متى ترضى النساء ومتى تغضب! فتوكل على الله – فُتك بعافية».

• رفع رأسه نحو السماء، وأغمض عينيه كأنما دهمه نعاس.

* * *

أثار الأمر نقاشـا وحيرة لدى إخباره عمه وزوجه، فلم يصدق أحد ما سمع، ونسبوا إلى «قاسـم» أنه ربما أسـاء الفهم إلا أنه أكد أن «جاريتها هى التى فتحت لى الباب» فهتفت زوجـة عمه قائلـة: «فهمت..! إذا قالت الجارية، فقد قالت السـيدة» وتذكر الجميع إن عمهـا هـو «عم عويس» البقال أغنى رجل فى الحى.. وبعد أن فكر عمه «زكريا» فى الأمر فضـل أن تكون البداية مع «قمر».. فقال لابن أخيه: «تكلم كما تكلمت يوم واقعة المنجد، إنك شـجاع حكيم، وسـنذهب معا إلى السيدة لنفاتحها فى الأمر، ثم نكلم «عويس»، لأننا لو بدأنا «بعويس» لأرسلنا إلى مستشفى المجاذيب..!»

وجـرت الأمور كما رسـم «عمّ زكريا».. وجلس «عمّ عويـس» مضطرب الخاطر وعندما جـاءت «قمر» وصافحته بأدب وجلسـت وفى عينيها نظرة جمعـت بين الهدوء والتصميم لم يـتردد عمهـا فى أن يبـدى تعجبه من ابنة أخيـه التى حيـرتـه فبالأمس رفضت يد «عمّ مرسى» وكيل أعماله بحجة أنه غير كفء، واليوم ترضى براعى غنم!!

فأجابت «قمر» بأنه وإن كان رجلا فقيرا حقا، لكن ليس من أحد فى حينا إلا ويشهد له ولأهله بالطيبة..

ولم يقتنع عمّها بقولها.. ولكنها أصرت على رأيها، ومضت تقول:

• «دلّنى يا عمى على رجل مهذب مثله فى حارتنا، دلنى ولو على رجل واحد لا يباهى بعمل من أعمال البلطجة أو الخسة أو الوحشية!!».

وكاد الرجل أن ينفجر من الغضب، ولكنه كتم غضبه لأنه فى الواقع يخاطب المرأة التى تسـاهم فى تجارته بمال غير قليل، ومن ثم مضى يحاول إقناعها وإغراءها بالعدول بقوله أنها لو شاءت لزوّجها من أى فتوة فى الحارة، فكان جوابها أنها لا تحب هؤلاء الفتوات ولا هذا النوع من الرجال.. أما «قاسـم» فهـو رجل مهذب ولا ينقصه إلا المال وعندها منه الكفاية – فاضطر إلى أن يلقى بآخر سـهم فى كنانته بقوله أنه يبلغها رسـالة «أمينة هانم» حرم حضرة «الناظر»، فقد قالت له: قل «لقمر» أن تعقل وأنها مقدمة على غلطة ستجعل منا أحدوثة الحارة – قالت «قمر» بحدة أنها لا تهمّها أوامر «الهانم».. واتجهت إلى عمها طالبـة أن يدعها من «الهـانم» التى لا يجنى منها إلا وجع الدماغ.. وأنها قد قبلت الزواج مـن «قاسـم» وأن ذلك يتم برضاء عمّها وحضوره. صمـت «عويس» تفكرا، وإذ لم يكن فى الوسع منعها، ولا فى الإمكان إغضابها.. فقد صمت «عويس».. لاذ بالصمت..

* * *

وتم الـزواج علـى خير، وعاش «قاسـم» مع «قمر» فى محبة ومـودة وراحة بال.. وقد تولّى بعد ذلك إدارة أملاكها وأموالها الموزعة بين حىّ الجرابيع والجمالية، وكانت معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقة.. لكن مرونة «قاسم» عالجت الأمور بخير ما يمكن أن تعالج بـه. وقد حرص على اكتسـاب ثقـة «عويس» عمّ زوجته إذ أولاه مـن بادئ الأمر احتراما وعنايـة، وتطوّع لمعاونته فـى بعض أعماله حتى أنس الرجل إليه وبادله ودا بود واحتراما

باحترام.. وكان «قاسم» لا يأخذ من المال الذى تحت يديه إلا ما يستحقه نظير إدارة أموال زوجته أو مقابل خدمات يؤديها «لعمّ عويس»..

وكان يلحظ حال من فى الحارة فيدعوه ذلك إلى أن يفكر فى الأمر، إنه يحظى بالمال وبالفراغ، ولكن تعاسة الآخرين تفسد عليه سعادته، إنه يؤدى الإتاوة «لسوارس».. وهذا يؤلمه، ولذلك فهو يودّ أن يشغل بالعمل فراغه كأنما ليهرب من نفسه، أو ليهرب من حارته القاسية..

وفى تلك الأيام طرأت على «قمر» أعراض غريبة.. قالت «سكينة» إنها أعراض الحمل، ولم تكن «قمر» تصدّق.. استخفّها الفرح، وامتلأ قلب «قاسم» بالغبطة فأذاع الخبر فى كل ركن له فيه حبيب.. ثم انطلق إلى الخلاء ليزور المعلم «يحيى»، لكنه توقف عند صخرة «هند»، فمضى إلى ظلّها وجلس وراح يفكر: ما أعطفه على أولاد حارته الذين يحلمون بالسعادة عبثا ثم سرعان ما تلقى الأيام بأحلامهم جانبا..! لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة، ويغمض العين عمّا حوله، لعل هذا التساؤل حير يوما «جبلا» كما حير يوما آخر «رفاعة». كان فى وسعهما أن ينعما بالراحة ويخلدا إلى السكينة، فما سرُّ هذا العذاب الذى يطارده كما طارد من قبل «جبلا» و«رفاعة».. كان يتأمل وهو ينظر إلى السماء فوق «الجبل»، سماء صافية ما عدا قطعا صغيرة من السحب متفرقة كأوراق الوردة البيضاء.. وقام – من بعد – ليواصل رحلته..

* * *

استقبل بيت «قاسم» حياة جديدة بمقدم وليدتهما «إحسان»، وبمولدها ألف البيت ألوانا لم يكن له بها سابقة عهد – بكاء الطفلة، يقظة الأم، أرق الأب، ولكن ذلك كلّه زاده غبطة وسرورا – ومع ذلك فلم يغب عن «قمر» ما كان ينتابه فى بعض الأحيان من شرود النظرة كأن هموما تنتابه.. وعندما تسأله لا يزيد على قوله «المولى أدرى بحالى» واستيقظت ذات ليلة فلم تجده فى البيت، ساورها القلق، وانتظرته طويلا فلم يعد، أيقظت «سكينة» التى رأت أن تسأل عنه فى بيت عمّه، ولكن لم تجد عند العمّ أو ابنه جوابا شافيا، ولكنهما جاءا معها وعلما أنه خرج من بعد العصر.. فقال «حسن» لعلّه ذهب إلى الصخرة فغلبه النوم عندها، فمضيا لتوّهما فى الطريق إليها بعد أن اصطحبا معهما

«صادقا» وداروا حول الصخرة فلم يجدوا له أثرا، والفجر يوشك أن ينبلج وهم فى حيرة. فليس له أعداء ولا هو من أهل المجون، فأين يكون قد ذهب أو اختفى؟ واصلوا الرحلة فى الخلاء. ووصلوا إلى كوخ «عمّ يحيى» فطرقوه، فخرج إليهم الرجل وهو يقول إنه توقّع مجيئهم، فاستبشروا خيرا، فأخبرهم أنه الآن بخير، لكن بعض جيرانه كانوا قادمين من العطوف فعثروا عليه عند صخرة«هند»وهو مغمى عليه فحملوه إلى «كشك عمّ يحيى» الذى قام برشّ العطر على وجهه حتى أفاق، لكنه بدا متعبا، فتركه لينام وما لبث أن استغرق فى النوم.. وأضاف أنه سيصحو على أحسن حال، ولكن لابدَّ من الانتظار حتى يستيقظ من تلقاء نفسه.

* * *

عاد إلى بيته، وجلس فى فراشه، ولم يعد معه وزوجته أحد سوى الصغيرة – كانت نظرات «قمر» المسترقة إلى زوجها تشى بالقلق، وتكشف عن هواجس عديدة تعتمل فى صدرها، فسألته عن حاله الآن، لعلها تسمع منه ما يطمئنها فكان جوابه أكثر باعث لها على الحيرة، فهو يقول بعد أن يطمئن إلى أن باب الغرفة مغلق أن ما به ليس مرضا ثم بدا كالمتردّد قليلا وهو يقول: لا أدرى! كلا، فليس هذا ما ينبغى أن يقال، إنّى أدرى كل شئ، ولكنّى أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولّت – وأشار إلى صدره وهو يقول: لدىّ هنا سرّ كبير أكبر من أن أحمله وحدى.. سأبوح به لأول مرة، أنت أول شخص يسمعه، لكن ينبغى أن تصدّقينى، فما أقول إلا الحق..

وازدرد ريقه وهى تستحثه بنظرة حارة، ومضى يقول:

ليلة أمس، حدث شئ عجيب، هنالك تحت صخرة «هند»، وأنا وحدى فى الليل والخلاء، كنت جالسا أتابع سير الهلال.. وإذا بصوت قريب يهتف باسمى، فارتعدت من وقع المفاجأة، ورفعتُ رأسى فرأيت شبح رجل واقفا على بعد خطوة من مجلسى.. فسألته من يكون.. قال لى: أنا «قنديل»! فعجبتُ لشأنه.. فتابع قوله: أنا «قنديل» خادم «الجبلاوى». وقفت من فورى تأدبا.. وقلت متسائلا: من أدرانى أنك صادق فيما تقول؟ فقال لى بهدوء: اتبعنى إذا شئت أن ترانى وأنا أدخل البيت الكبير. فاطمأن قلبى، وقلت لنفسى: فلأصدّقه حتى يتبين لى أمره، ولم أخف عنه فرحى بلقياه، وسألته عن جدّنا:

كيف حاله؟ وماذا يفعل؟ فقال لى إن جدنا بخير، ولم يزد عن ذلك شيئا فسألته: هل يدرى بما يجرى فى حارتنا؟ فأجاب بأنه يعلم كل شئ.. وأن المقيم فى البيت الكبير يستطيع أن يطلّع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع فى حارتنا، وأنه لذلك أرسله إلى. هكذا قال. وندَّ عنّى ما يفصح عن دهشتى، ولكنه لم يبال بى، وقال: «لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة، ولأمانتك فى بيتك؛ وهو يبلّغك بأن جميع أولاد الحارة أولاده على السواء، وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة، وأن الفتونة شرٌّ يجب أن يذهب، وأن الحارة يجب أن تصير امتدادا للبيت الكبير».. وساد الصمت، وكأنما فقدتُ القدرة على النطق، ولمحت عيناى المتطلعتان إلى هامته السحب وهى تسفر عن الهلال فى رقعة صافية. فسألت بأدب: «ولماذا يبلغنى ذلك؟» فأجاب: «لكى تحققّه بنفسك..!» هكذا قال، وهممت بأن أستوضحه، ولكنه حيّانى وذهب، فتبعته حتى خيل إلىّ أننى رأيتهُ يصعد إلى أعلى السور المشرف على سلّم خارق الطول.. فوقفت ذاهلا. ثم عدتُ إلى مكانى السابق وفى نيتى أن أقصد المعلّم «يحيى»، لكنى غبت عن الوجود ولم أعد إلى رشدى إلا فى كوخ المعلم.

عاد الصمت يملأ الحجرة و«قمر» لا تحول عن وجهه عينيها الذاهلتين.. وراحت تحدث نفسها بأنه صادق فهو لم يكذبها قط، ومحال أن يختلق تلك الرواية وهو أمين لا يمكن أن تكون له مطامع فى أى شئ.. ووجدت نفسها تقول له: «قاسم»، حياتنا واحدة، وأنا لا تهمنى نفسى بقدر ما تهمنى أنت. وسرك هذا شئ خطير، وعواقبه لا تخفى عليك..

وراحت «قمر» تستوضحه لتتأكد من حقيقة ما حدث، حتى تراءى له أنها لا تصدِّقه فارتاعت «قمر» لقوله وقالت: كلُّ ما هناك أنها تخاف عليه.. ولكنها تتساءل لماذا قصدك أنت بالذات؟ فأجابها بتساؤل مثله: ولماذا قصد «جبل» و«رفاعة»؟ اتسعت عيناها.. وغضت بصرها فى جفول، ثم أجهشت فى بكاء، ولما سألها: لماذا تبكين؟ نظرت إليه من خلال دموعها قائلة: – «لأننى أصدقك.. نعم أصدقك.. وأخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت.. فماذا أنت فاعل؟».

* * *

وكان لابـد أن يناقـش هذا الموضوع مع عمّه وعمّها وصديقيه «حسـن» و«صادق».. بدا «عمّ زكريا» مفكرا مقطّبا، وراح «عمّ عويس» يعبث بشـاربه، وكان «حسن» كأنه يحادث نفسه، أما «صادق» فلم يحوّل ناظريه عن وجه صديقه «قاسم» على حين انزوت «قمر» فى ركن الحجرة تدعو الله أن يهدى الجميع إلى الرشاد..

• قال «صادق»: إنه رجل صادق، أتحدّى أى مخلوق أن يذكرنا بكذبة واحدة صدرت منه، فهو عندى مصدق.

• وقال «حسن» بحماس: وأنا كذلك، وسيجدنى دائما إلى جانبه..

• لكن «زكريا» قال: ليس الأمر لعبا، فكّروا فى حياتنا وسلامتنا.

• فأمن «عويس» على قوله وهو يقول: صدقت، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم.

• فقال «قاسم»: بل سمعوا مثله وأكثر من «جبل» و«رفاعة»..

• فكان تعليق «عويس» تساؤلا: أتظن أنك مثل «جبل» و«رفاعة».. ؟!

• وغض «قاسم» بصره متألما.. فقالت «قمر»: عمّى! من يدرى كيف تقع تلك الأمور؟

• فقال «زكريا»: وأىّ خير فى أن يظن نفسـه «كجبل» أو «رفاعة»؟ قتل «رفاعة» شـرّ قتله وكاد «جبل» أن يقتل لولا انضمام أهله إليه. ومن لك أنت يا «قاسم»؟

وتساءل – فيما بينه وبين نفسه – هل يجئ الرجال الكبار بهذه البساطة؟ ولم يسعه إلا أن يقول: يبدو أن «قاسم» لا يتأثر بتحذيراتنا.! ترى ماذا يريد الفتى؟ هل عز عليه أن يبقى حينا وحده الذى لا نصيب له فى الوقف؟ أتريد يا «قاسم» أن تكون فتوة وناظرا لحيّنا؟

ظهر الاحتداد فى وجه «قاسم» وهو يقول: لم يبلغنى بذلك، وإنما قال إن جميع أولاد الحارة أحفاده، وأن الوقف لهم على قدم المساواة، وأن الفتونة شر..

وعلّـق «زكريـا» على ذلـك بقوله إن هذا يعنى أنـه يتحدى قوة «الناظـر»، ونبابيت «لهيطة» و«جلطة» و«حجاج» و«سوارس»..!

• فقال «قاسم» بهدوء كالحزن: هو ذلك.

• قال «زكريا»: سيقضى علينا جميعا بالهلاك، سنُوطأ بالأقدام، ولن يصدقك أحد..

• وقـال «عويس»: دعونا من الحكايات.. وعلينا أن نأخذ الأمر بالحكمة والحذر، فاهتم يا «قاسم» بحيك.. دعك من الإخاء والمساواة.. وما هو خير، وما هو شر. ومن اليسير أن تضم «سوارس» إليك وهو قريبك، ويمكن الاتفاق معه على أن يترك لنا نصيبا فى الريع...

• ولكنى عقدت العزم على تحقيق إرادة جدّنا كما أبلغتها..!!

وعـاد «زكريـا» يدعوه إلى أن يترك ذلك كله ويركن إلى حياتـه الرغيده.. وكان جواب «قاسم» الحازم: «فكرت يا عمّى طويلا ثم أخذت سبيلى.. لست طامحا إلى شئ مما تفكرون فيه. إنما أريد الخير الذى أراده جدنا..».

وحـاول عمّه أن يثنيه فـكان قراره الحازم: «لن أقلع عما فى رأسـى ولو ملكّتُ الوقف وحدى»..

* * *

وكان من الطبيعى أن تسـاور «قاسم» الوسـاوس.. وراح يتساءل فيما بينه وبين نفسه: القريـب لم يصدقك فمن ذا الـذى يصدّقك؟ وما فائدة الحزن؟ ومـا جدوى الانفراد تحت صخـرة «هنـد».! كأنك تأمل فى لقـاء الخادم مرة أخرى ولكـن أى جديد عنده ترتقب؟ وتجـوس فى الظلام حول البقعة التى قيل إن جدك قابل فيها «جبل»، وتقف طويلا وراء السـور الكبير فى الموضع الذى قيل إنه خاطب عنده «رفاعة». لكن لا شـخصه رأيتَ ولا صوته سمعتَ، ولا خادمه رجع. ماذا أنت فاعل..؟؟

وهو يحادث «قمر».. كان يقول: إذا نصرنى المولى فلن أحرم النسـاء ريع الوقف.. لأن الوقف للجميع. والنساء نصف كيان حارتنا..

وتراءى له أن يزور المعلّم «يحيى» برفقة صاحبيه ليسـتمع إلى «يحيى» وهو ينبهه إلى أن لديه عمّه وهو لا فائدة منه ولا ضرر، وأما عمّ زوجته فبوسع «قاسم» أن يكسبه إلى صفه فيما لو منّاه بشـئ كأن يعده بنظارة الجرابيع.. فبادر «صادق» يقول إن «قاسـم» لن يميّز أحدا بشئ، فريع الوقف ميراث الجميع على قدم المساواة كما قال «الجبلاوى».

ضحـك «يحيـى» وهو يقول: مـا أعجب جدنـا، كان قوة فى «جبـل»، ورحمة فى «رفاعة»، واليوم له شأن آخر.. قال «قاسم»: إنه صاحب الوقف، ومن حقه أن يغيّر ويبدل فى الشـروط العشـرة.. وكان ما قاله «يحيى» تذكيرا «لقاسـم» بمهمته الشاقة التى تخص الحارة كلّها لا حيا من الأحياء.. فصدق «قاسـم» علـى قوله بأن: «هكذا أراد الواقف».. ومضى «قاسـم» يقول: إن حارتنا التعيسـة فى حاجة إلى النظافة والكرامة.. وذلك يجئ

بالوقف وبالقضاء على الفتونة. هنالك تتحقق الكرامة التى أهداها «جبل» إلى حيه، والحب الـذى دعا إليه «رفاعة»، والسـعادة التى حلم بها «أدهـم».. ولئن نصرنى المولى فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى..

وعرض «قاسـم» خطته بأنه يفكر جديا فى مشـاورة «محام شرعى» فكان جواب المعلم «يحيى» أنه لا يمكن لأى محام أن يتحدَّى «الناظر» رفعت وفتواته. ورجع الأصدقاء الثلاثة فيما يشبه القنوط.

وعانـى «قاسـم» فى خلواتـه من العذاب، وركبـه الهم والكدر.. فدعـا يوما «صادق» و«حسـن» إليه قائلا لهما أنه قد آن لهم أن يبدأوا.. فقد انتهى من تفكيره إلى قرار بإنشـاء ناد للرياضة البدنية.. وسـيجئ الشبان إلى النادى حبا فى القوة واللعب، وسيقْع الاختيار على من هم أهل للثقة والاستعداد..

• وتحمسوا للفكرة.. وشملتهم فرحة غناء.

* * *

وجـرى تنفيذ المشـروع وتحوَّل حـوش البيت إلى ناد لتقوية الأبـدان وتطهير الأرواح، وكان «قاسم» يشـارك الجميع برفع الأثقال وتعلّم التحطيب، و«صادق» امتلأت عضلات ذراعيه. أما «حسـن» فياله من مارد عملاق، والآخرون ما أبهر حماسـتهم، وكان «صادق» حكيما يوم نصحه بدعوة المتعطلين والمتسولين إلى ناديه، وسرعان ما تحمَّسوا لألعابه، كما تحمَّسوا لأقواله. وهم وإن كانوا قلة إلا أنهم لطموحهم إذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم.. و«قاسـم» يحلم بأن تسـتقيم الأمور، ويمتلئ النادى بالأعوان الأقوياء والصادقين.. غـدا يتحدَّى بهم «الناظر» والفتوات، وجميع العقبـات، كى لا يبقى فى الحارة إلا جدٌّ رحيم وأحفاد بررة، ويمحى الفقر والقذارة والتسول والطغيان، وتختفى الحشرات والذباب والنبابيت وتسود الطمأنينة فى ظل الحدائق الغناء..!!

وحينما عرفت «قمر» أن «سـكينة» عرفت السر اتهمتها بالتجسس، ولكن «قاسم» نفى ذلك عنها ووصفها بالأمانة والإخلاص، وأنها لم تسـترق السـمع، ولكن الصوت نفذ إليها بمشـيئة المولى.. ووعدها بأن تنال نصيبها من الوقف وأنها سـتكون رسـوله إذا احتاج إلى رسول، فسعدت المرأة ونظرت إلى سيدها بامتنان.. غير أن أمرا لفت انتباه «قاسم» إذ كان

أحد أعضاء النادى مخمورا.. وراح يقول – فى الحارة – جاء دور الجرابيع – جدٌ واحد للجميع.. والسلام على الفتونة..

وسـرعان ما وثب «قاسـم» واقفا فتناول عباءته وغادر الحجرة مسرعا، وهو يقول: الله يلعن الخمر وزمانها..!!

* * *

اجتمع «قاسـم» برفاقه فى الخلاء، فكان توجيهـه لهم أن يتجنبوا الظهور بين الناس وهم سكارى. وبدا «عجرمة» مطرقا أسيفا وهو يعبّر عن أسفه بقوله «ليتنى متّ قبل ذلك».. وراح «قاسـم» يبحث مع رفاقه مدى وقع ما قال «عجرمة».. حيث قال «حسن» أنه سمع رجـلا يحكـى بصوت مرتفع ما كان من أمر «عجرمـة».. وأن الرجل وإن كان يحكى وهو يضحك هازئا إلا أن «حسـن» لا يسـتبعد أن تثير حكايته ريبة فى بعض النفوس.. وعاد «قاسـم» إلى الكلام قائلا بأنه ينبغى أن يتدبروا الأمر.. وتسـاءل «صادق» عمّا كان «قاسم» قد فكر فيه يوما من الالتجاء إلى محام شـرعى.. وقال «عجرمة» إن هناك محاميا فى بيت القاضى معروفا بالجرأة ويمكن مشـاورته فى الأمر، والاتفاق معه على تأجيل رفع الدعوى إلى أن تدفـع الضرورة إليها. ووافق «قاسـم» والآخرون على هـذ الرأى كإجراء احتياطى، وقاموا من فورهم فذهبوا إلى مكتب «الشـنافيرى» المحامى الشـرعى ببيت القاضى. قابلهم الشـيخ، فشرح له «قاسـم» قضيتهم، وأخبره عن نيتهم فى تأجيل رفع الدعوى إلى حين. وعلـى خلاف ظن أكثرهم قبل المحامـى القضية، وقبض مقدم الأتعاب فانصرفوا مغتبطين ومضى «قاسم» إلى المعلم «يحيى» يبادله الرأى وبدا المعلم آسفا على ما وقع ووصّى «قاسم» باليقظة والحذر، وعاد «قاسـم» بعد ذلـك إلى داره، ولما فتحت له «قمر» رأى فى وجهها مـا أزعجـه.. وما لبث أن علم منها بأن «حضرة الناظر» أرسـل فى طلبـه أكثر من مُره.. واغرورقـت عيناهـا وهى تتكلم فقال لها إن هذا ليس هـو ما ينتظره منها. وطلبت إليه ألا يذهب، فكان جوابه أن الذهاب آمن من التخلف.. وأنه سيذهب من فوره.. وهو يذكرّها بما سـبق له قوله بأن أيام الراحة قد ولت وأنهم جميعا يعلمون بأنهم سيواجهون الشرّ عاجلا أو آجلا.. ونصحها بألا تجزع هكذا..!

* * *

ودخل «قاسم» للقاء «الناظر» ثابت الجنان.. ورأى «الناظر» يجلس فى أقصى البهو، فاتجه إليه وألقى عليه التحية – ولمح دون قصد «لهيطة» الفتوه يجلس إلى يمينه، وحينما نظر إلى الجالس إلى يساره تلقىَ صدمة كادت أن تهيضه، لم يكن الرجل إلا الشيخ «الشنافيرى» المحامى الشرعى! أدرك «قاسم» لتوّه خطورة الموقف، بعد أن خان المحامى الأمانة.. فصمَّم «قاسم» على الصمود والتحدِّى إذ لم يكن فى الوسع التراجع. وابتدأ الحوار بين «قاسم» و«الناظر» على نحو غير طبيعى. فكلمات «الناظر» تنبئ عن تكبر واستعلاء، وردود «قاسم» تشى بالشجاعة والإيمان.. والمحامى سيفسح «لقاسم» مجالا للتوبة بما هو خير من التورط فى عداوة تؤدى «بقاسم» إلى الهلاك – وقال المحامى إن حضرة «الناظر» قد أذن له بالتشفع «لقاسم» عنده بالعفو إذا أعلن التوبة.. ثم ردّ إليه مقدم الأتعاب.

رمق «قاسم» المحامى بنظرة قاسية وهو يسأله: لماذا لم تنصحنى بالحق وأنا فى مكتبك؟ فأخذ المحامى بجرأة «قاسم» ولكن «الناظر» أسعفه بقوله «لقاسم» إنه هنا ليسأل وليس ليسأل، ونهض المحامى مستأذنا فى الانصراف ومضى عن المجلس تاركا «قاسم» «للناظر» و«للهيطة». وفاجأ «الناظر» و«قاسم» بسؤال عن كيف سوِّلت له نفسه الشروع فى رفع دعوى عليه.. ثم مضى يسأله: هل أنت مجنون؟ قال «قاسم»: أنا عاقل بحمد الله.. وكان تعليق «الناظر» بأن هذا ليس مؤكدا، والإ ففيم أقدم على فعلته المنكره.. وهو لم يعد فقيرا منذ رضيته المجنونة زوجا لها.. فماذا أراد من فعلته؟ أجاب «قاسم» فى ثبات:

لا أريد شيئا لنفسى.. ما أردت إلا العدْل.. وأنا عاقل والحمد لله.. وما أردت إلا العدل للجميع. فبذلك تتحقق شروط الواقف. إنه جدنا جميعا..

وقد أثارت ردود «قاسم» غضب «الناظر»، فهوى بشعر منشته على وجه «قاسم» بأقصى قوته، وهو يصيح بالشتائم والردود الغاضبة، مما دعا الفتوة إلى التدخل ليسكن من ثورة «الناظر» حتى استطاع أن يعيده إلى مجلسه وشفتاه ترتعشان من الغضب.. وراح الفتوة يواصل دوره فى الأسئله عمن وراءه؟ ومن دفعه إلى رفع الدعوى؟ ويأتيه جواب «قاسم» حازما: لا أحد سوى نفسى، فيقول له الفتوة إنه كان راعى غنم، ثم ابتسم له الحظ، ففيم يطمع أكثر من ذلك؟ ويكون جوابه الحازم: العدل. العدل يامعلم.. وعندما يعيد «لهيطة» سؤاله «لقاسم» عمَّن وراءه يكون جواب «قاسم»: إنه جدنا.. وعندما أبدى «لهيطة» دهشته

قال له «قاسم» فى ثقة: اطلع على شروط الوقف وستعلم أنه هو الذى دفعنى.. هنا لم يتمالك «الناظر» نفسه، فهبَّ واقفا وهو يصيح: ابعده عن وجهى..

• وكان ما قاله وهو يخرج «لقاسم» همسا فى أذنه: «اعقل إكراما لنفسك».

* * *

وعندما عاد إلى منزله كان ثمة زمرة من أصفيائه، تلقوه فى صمت وإشفاق.. غير أن حماه بادره بقوله: «ألم أنصحك؟» ثم مضيفا: إن شر المتاعب ما تجىء صاحبها من نفسه.. أما عمّه فقد تفحصه فى إشفاق وقد آلمه أنهم أهانوه.. وهو يعلم كم هو فى ألم..! غير أن «عويس» لم يتمهل، بل بادر يطلب إلى الجميع أن ينفضّوا بسلام.. وكان ما قاله «قاسم» لهم أنه لا يخفى عنهم أن الموت يتهددهم، وأنه يعفى من معاونته من يشاء.. هنا طلب إليه عمّه أن ينهى الأمر عند هذا الحد.. فما كان من «قاسم» إلا أن قال بهدوء وتصميم:

• «لن أتخلى عن الأمر مهما تكن العواقب، ولن أكون دون «جبل» أو «رفاعة» برا بجدى وأهل حارتنا».

واختلف وقع هذه الكلمات لدى السامعين.. إلا أن «سوارس» قطع عليهم حديثهم إذ ما لبث أن دخل عليهم وكان أول ما قال وعيناه على «قاسم»: «لم أكن أدرى أن فى حينا فتوة سواى» وحاول «زكريا» و«عويس» أن يترضياه.. ولكنه إزاء ما أسمعه «لهيطة» من كلام ثقيل.. أصدر قراره إلى رفقة «قاسم» بأن يلزموا حدودهم، فلا يقرب أحد منهم بيت «قاسم».. وهكذا وجد «قاسم» نفسه سجينا فى بيته لا يزوره أحد سوى «حسن» ابن عمّه..

وكان أن انتشرت الأقاويل فى الحارة بجميع أحيائها، حسبما يريد الفتوات، الذين عمدوا إلى وصف «قاسم» بالكذب مما زاد ضيقة وألمه..

وارتفع من الطريق صوت «سوارس» يسبّ ويلعن.. كان ممسكا «بشعبان» وهو فى طريقه إلى «قاسم» وينهال عليه ضربا دون أن يتمكن الفتى من الإفلات من قبضته.. وفى أقل من دقيقة كان «قاسم» يقف أمام الفتوة يأمره بحزم أن يترك الفتى.. فلما لم يستجب تقدم «قاسم» فقبض على اليد الضاربة وشدَّ عليها.. فاضطر الفتوة أن يترك ضحيته الذى انهار فى غيبوبة.. ولم ينس «سوارس» ثأره، فرمى «قاسم» بالتراب ثم تولّى منصرفا.. تاركا «قاسم» مختنقا فيما ألقى عليه من تراب.. ورفع رجال «شعبان» ومضوا إلى بيته..

* * *

غير أنه فى مساء نفس اليوم ارتفع الصراخ فى أحد الربوع ينعى ميتا، وقد تبين بعد قليل أن الميت هو« شعبان»، مما زاد من ألم «قاسم» فغادر داره فزعا قاصدا ربع «شعبان».. ليواجه بآيات الحزن والفزع والكلمات تتردد بالدعاء على «قاسم» الذى قتله.. فردّت إحدى الحاضرات بأنه ما قتله إلا «قاسم» الذى يفترى الأكاذيب فيتسبب فى قتل الرجال. انقبض قلب «قاسم» حزنا وإن لم يمنعه من أن يصعد إلى حيث شقة القتيل.. ونادى زوجة القتيل فجاءته بعينين دامعتين، لتسأله بنظرات متحجرة عما يريد، فلما أجابها بأنه جاء للعزاء، بادرته بقولها إنه هو الذى قتله، وما كان أغناهم عن الوقف، وأحوجهم إليه هو.. فدعا لها بالصبر، وغادر المسكن كئيبا مغتما.

وفى الصباح خرج النعش عند الضحى، وقد اقتصر المشيعون على الأهل والأقارب ولكن «قاسم» انضم إلى الجنازة غير مبال بنظرات الفتوة المحرقة، وغير مبال بغضب صهر القتيل الذى قال «لقاسم» محنقا: تقتل القتيل وتمشى فى جنازته؟ لماذا جئت؟

فكان جواب «قاسم» فى إصرار:

• «جئت لأقاتل كما قاتل صديقى – رحمه الله – كان شجاعا، ولستم كما كان، فأنتم تعرفون القاتل وتصبون جام غضبكم على».

وتجمهرت النساء وراء الرجال.. وسارت الجنازة حتى اخترقت الجمالية نحو باب النصر، وما لبثت مراسم الدفن أن تمت، وتفرق بعدها المشيعون.. وتخلّف عنهم «قاسم» الذى رجع إلى القبر، فوجد أصحابه فى الانتظار.. ولم يضيعٌ «قاسم» وقتا، فبادر يجفّف دموعه قائلا لرفاقه إن من يرد السلامة فليذهب، فقال أحدهم إنهم لو كانوا يريدون السلامة ما وجدهم حوله.. ثم قال أحدهم «لاينبغى أن نضيع غدرا كما ضاع فقيدنا، فكّروا فى الغد وكيف نحقق النصر؟ وكيف نجتمع لتبادل الرأى؟ فقال لهم «قاسم» إن هذا ما كان يفكر فيه فى سجنه وقد اهتدى إلى رأى ليس باليسير، ولكن لا محيد عنه.

فلما استطلعوه متسائلين – أردف قائلا:

اهجروا حارتنا فليدبرٌ كل شأنه وليهاجر. سنهاجر كما هاجر «جبل» قديما، وكما هاجر المعلم «يحيى» بالأمس، ولنقم نادينا فى مكان آمن بالخلاء حتى يشتدّ ساعدنا ويكثر عددنا. فنحن لن نطهر حارتنا من الفتوة ولن نحقّق شروط الواقف ولن يسود العدل

والرحمة والسلام إلا بالقوة. وستكون قوتنا أول قوة عادلة غير باغية.. لقد وضع جدنا ثقته بين أيدينا وهو عن يقين يؤمن بأن فى أبنائه من هم أهل لحملها. وقد استروح «قاسم» لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج..

* * *

وعندما رجع «قاسم» إلى بيته – عند منتصف الليل – وجد «قمر» مستيقظة تنتظره، ولاحظ أنها تبالغ أكثر من عادتها فى العناية به والحنوّ عليه.. لكنه لاحظ عليها تغيّرا طارئا: ذبولا فى عينيها، واحمرارا يخلفه البكاء.. وتعلل ذلك بأن موت «شعبان» أحزن الجميع، فضلا عن اعتداء الفتوة على «قاسم»، فكم ضايقها ذلك.! وإن كانت تخفى فى نفسها الكثير من القلق، كما تخفى عن «قاسم» ما تعانى من آلام المرض.. وإن كان يحسّ به ويهوّن عليها آلامها بما يقول لها من أنها كل شىء فى حياته، وأنها خير رفيق فى الحياة.

على أن الحارة بدأت تلحظ أمورا غير عادية، فبين اليوم والآخر يختفى أحد الرجال دون أن يعرف أحد أسرار مكان اختفائه! الأمر الذى اضطر معه الفتوة أن يدعو إليه «العمّ زكريا» ليقول له إن ابن أخيه خير من يدل على سر الهاربين.. فلما حاول التنصل أسمعه الفتوة ما آلمه وأزعجه.. ولكنه عند عودته إلى بيته علم بما أحزنه: «قمر» مريضة وفى حالة سيئة وما لبث خبر مرضها أن انتشر فى الحارة كلّها، ولازمها «قاسم» وهو فى غاية من الكآبة والحزن وزاد من أحزانه أنها أخفت عنه مرضها منذ زمن طويل.. وراح يدعو لها بالشفاء: يا إلهى احفظها برحمتك، وأبقها لى، واعطف على بكاء الطفلة الذى لا ينقطع.!

وإن كان الحال يزداد سوءا.. إلا أنه كان مما يزيد آلام «قاسم» عجزه عن أن يفعل لها شيئا.. وراح يلحظها وهى تتلوى من الألم.. إلى أن أسلمت الروح إلى بارئها..

* * *

والعجيب أن يأتى «سوارس» معزيا، وما أسرع أن أقبل وراءه الجرابيع، كما جاء «الناظر» رفعت معزيا هو الآخر فتبعه على الأثر سائر الفتوات.. ثم كل الناس، لتنتظم الجنازة جموعا غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلا من قبل. وتحلّى «قاسم» بصبر الرجل

الحكيم رغم آلامه الدفينة كان يشعر بكل حوَّاسه وجوارحه تبكي إلا عينيه. وانصرف المعزُّون ولم يبق فى المدفن إلا «قاسم» و«عويس» و«زكريا» و«حسن». وراحوا ثلاثتهم يعزونه ويدعون له بخير، وإن كان «قاسم» قد جاءهم بسؤاله: «ما الذى جاء بهم؟» فأدرك الجميع من يعنى بسؤاله وبادر عمّه يقول إن لهم الشكر على أى حال.

غير أن «عويس» بادر ينتهز الموقف وماظنه من لحظات ضعف تنتاب «قاسم» فتشجع ليطلب إلى «قاسم» أن: «ابدأ معهم من جديد، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات. ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حينا لا يؤخذ مآخذ الجدّ» – ولم يشأ «قاسم» أن يدخل فى جدال فآثر أن يغوص فى الصمت والحزن. وإذ بجماعة تقبل وكأنما كانوا يرصدون اختفاء المعزِّين. كانوا كثرة وليس فيهم غريب، فعانقوا «قاسم».. وبادره «صادق» قائلا إنه لم يعد ثمة ما يبقى «قاسم» فى الحارة. قال «قاسم» بلهجة ذات مغزى: «كان بقائى فى الحارة ضروريا، فبفضله ازددتم مع الأيام».. وكان أكثر هؤلاء من أغراهم «قاسم» بالهجرة واللحاق بأصحابه حينما كان يتسلل من داره كل ليلة عقب نوم الحارة فيلقى منهم مودة وحسن استعداد للاقتناع بكلامه.. وانتحى به «صادق» جانبا ليطلب إليه أن يعجِّل باللحاق بهم، فقد أصبح اليوم وحيدا فكان جواب «قاسم» «كل شىء رهين بوقته».. ثم تعانق الصحاب وعاد «قاسم» وأهله إلى الحارة..

ومضت الأيام «بقاسم» ليقبع فى داره وحيدا كئيبا، ولكنه كان يواصل جولاته الليلية الخفية بهمة.. ومضى عدد المختفين فى النموّ والناس تتساءل فى حيرة.. ولكن لم يكن من الانتظار بدّ، وكانت أياما مليئة بالعمل والخطر..

ويوما طرق باب الدار طارق. وكانت القادمة فتاة فى مقتبل عمرها مستترة وعلى الوجه حجاب وعرّفت نفسها بأنها «بدرية».. أرسلنى إليك أخى «صادق» ومضت لتخبره بأن «صادق» يخبره أن يغادر الحارة فورا، فإن الفتوات تآمروا على قتله فى نفس الليلة.. وتركها لتعود وهو يطلب إليها أن تبلغ تحياته لأخيها وتخبره أنهما سيلتقيان فى الصباح.

* * *

وللتو راح يضع الخطة ويرتبها.. إلى أن وافاه «حسن» مبتدرا إياه بما لاحظه من أن بالحىّ حركة غريبة.. حربية.. فاضطر «قاسم» أن يصارحه بما أخبره به «صادق».. وطلب

«قاسم» إلى «حسن» أن يلحق بالجارية حيث مضت بابنته، واعدا إياه بأنه سيهرب بالحيلة لا بالقوة.. وجاء إليه عمّه ليخبره بما علم.. وكاشف «قاسم» عمّه بخطته – سيترك مصباحا مضاء للتضليل وسيهرب عبر الأسطح حتى بيت عمّه وأنه – حذرا منه – لن يشرع فى الهرب حتى تخلو الأسطح من السمّار.. وسوف يسبقهم إلى الهرب إن شاء الله.

ومضى الوقت وئيدا ثقيلا ولكنه حمل ليل السمار إلى غايته فصمتت الأسطح، وخلا الطريق من العربات والصغار، وأقفرت المقاهى.. ولم يبق فى الظلام إلا ندامى الموت وبذلك حان وقت العمل.. وعند صعوده اكتشف أن الأسطح محاصرة.. فرجع إلى سطحه، وقف عند السلم يتنصت فسمع وقع أقدام صاعدة، وتكتل الصاعدون أمام بابه وخبطوا الباب خبطة شديدة فانفتح، وتدافعوا إلى الداخل، فبادر يهبط مسرعا حتى انتهى إلى الحوش، وكان أن صرع من اعترضه حتى تيسر له أن يصل إلى نهاية الحارة.. ومنها فى طريقة إلى الجمالية حيث لقيه «حسن».. وانطلق الاثنان فى الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما من حجر أو نقرة.

بعد مسافة التقى مع نفر من رفاقه.. وبعد فترة غلب شعور بأنهم يبتعدون حقا عن الخطر.. حتى وصلوا إلى كوخ المعلم «يحيى». فتلقاهم حامدا الله.. وهو ينظر إلى «قاسم» فى مودة قائلا: اليوم أنت «كرفاعة أو كجبل»، وسوف أعود إلى حارتنا عندما يُقيض لك النصر وقد ابتعد «قاسم» ورفاقه يوغلون فى الخلاء نحو الجبل، وتقدمهم «صادق» إذ كان أخبرهم بالطريق. وبلغوا السفح فساروا بحذائه نحو الجنوب حتى عثروا على الممر الضيق الذى يصعد إلى مقامهم الجديد فوق الجبل، وصعدوا وراء «صادق».. الذى أخبره بأنه قد أعد له دارا وسط ديارهم وأن «إحسان» تنام فيها الآن.. وقد تلقاه أهله الجدد فى فرحة وسرور.. وصعد «قاسم» إلى السطح فتلقاه الرجال بالعناق، وصافحته النساء، وارتفعت الأصوات بالتحيات والتهليل والتكبير.. وإذ تطلعت إليه الوجوه الجديدة بادرهم قائلا: «سنرفع النبابيت كما رفعها «جبل»، ولكن فى سبيل الرحمة التى نادى بها «رفاعة»، ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى نحقق حلم «أدهم». هذه هى مهمتنا لا الفتوة».

وبعدما نهض.. فيما بين الظهيرة والعصر برأس مثقل، وجسد متعب.. وغادر الكوخ ليجد «صادق» و«حسن» فى انتظاره.. وألقى نظرة فلم تقع عينه إلا على امرأة أو طفل.. قال «صادق» موضحا إن الرجال ذهبوا سعيا وراء الأرزاق وتخلّف «صادق» و«حسن» للاطمئنان

على «قاسم».. وتابعت عيناه النسوة العاملات فى الطهى أوالغسل وتساءل: «ترى هل هن راضيات؟» وكان جواب «صادق» أنهن يحلمن بامتلاك الوقف.. فابتسم «قاسم» إبتسامة عريضة وهو يردّد بصره بينهما فى تساؤل: ماذا يدور فى رأسيهما عن الخطوة التالية.. بادر «حسن» يبدى رأيه بأن ينتهز غفلة ثم يهجم و«صادق» يقول معترضا: بل نصبر حتى نضم إلينا أكبر عدد من أهل الحارة ثم نهجم فنضمن النصر، كما نضمن قلة الضحايا.. هتف «قاسم» وأساريره تنبسط: أحسنت وشملتهم طمأنينة حالة..

* * *

وكان وقت الأصيل هو وقت التحطيب، فينبرى الرجال لممارسة تلك التمرينات الشاقة عقب عودتهم من أعمالهم قليلة الرزق، وكان «قاسم» أول المتبارين وكم سرّه أن يرى حماسة رجاله وتوثبهم لليوم العصيب أشداء بين الرجال ولكنهم يكنُّون له من الحب ما لم تعرفه حارتهم الممزقة بالبغضاء.. وصف الأكواخ يمتد طولا بمن ينضم إليهم من رجال جدد.

وحادث «صادق» حبيبه «قاسم» عن أن مثله لا يستغنى عن امرأة.. وما زال به حتى أقنعه بأنه أول من يحتاج إلى أنيس.. ولكنه راح يتساءل: أين أجد زوجة مثل «قمر»؟ واقترحوا عليه «بدرية».. وقالوا له إنها فتاة ناضجة.. وما لبث أن وافق.. واحتفلت الحارة الجديدة بالزفاف.. وزفت «بدرية» إلى «قاسم».

* * *

وفى كل يوم كان ينضم إليهم رجل جديد.. وجاءهم من يقول إنه من حى «رفاعة» واستقبلوه بترحيب قائلين: «نحن لا نفرق بين حىٍّ وحىٍّ، فالحارة حارتنا والوقف للجميع» وأخبرهم القادم أن من وراءه يتساءلون عن المكان الجديد، ويتوقعون من ناحية «قاسم» ورفاقه شرا، ولكن هناك قلوبا كثيرة تتمنى «لقاسم» النصر.

وقال «صادق» إن القادم جاء بخبر مهم.. فاليوم سيتزوج «سوارس» للمرة الخامسة، وستسير زفته.. ونبت اقتراح بأن يجرى هجوم على زفته وأن هذه فرصة للقضاء عليه.. وتفكر «قاسم» مليا ثم أبدى موافقته على الهجوم على الزفة كما يفعل الفتوات مذكّرا رفاقه بأن يذكروا دائما «أننا نهاجم للقضاء على الفتونة».

وقبيل منتصف الليل تجمع الرجال عند حافة الجبل يهبطون واحدا فالآخر وراء «قاسم» وأيديهم قابضة على النبابيت. وانتهوا إلى الخلاء، واتجهوا ناحية الشمال من وراء سوق المقطم ثم ساروا بحذاء الجبل، ولما اقتربوا من صخرة «هند» أقبل نحوهم من أخبرهم بأن الزفة ستسير نحو باب النصر – ولن تسير كما هى العادة نحو الجمالية – ولعلهم بذلك يحرصون على الابتعاد عن الأماكن التى يظنون مقام «قاسم» ورفاقه قريبا منها..

فكر «قاسم» بسرعة ثم قال إن «صادق» وبعض الرجال يذهبون إلى ما وراء بوابة الفتوح ويمضى آخرون إلى خلاء باب النصر، وسوف ينتظر «قاسم» و«حسن» وبقية الرجال وراء باب النصر.. وعندما يدعو «قاسم» إلى الهجوم فعليهم بالهجوم. وكانت وصية «قاسم» أن يركزوا الضرب على «سوارس» ورجاله أما الآخرون فسيكونون إخوانا لهم فى الغد.

وأخذت أصوات الزفة تقترب، وتتضح، ثم ترامى الزمر والطبل.. وعلى ضوء المشاعل بدت الزفة وهى تتقدم، وتراءى «سوارس» للعين.. واستمر تقدم الزفة.. حتى أطلق «حسن» صفيره ثلاثا فهبط الرجال من كل ناحية وانقضوا على مؤخرة الزفة، فاجتاح الاضطراب صفوفها، وارتفع صراخ الغضب والخوف. وصفر «حسن» ثلاث مرة أخرى فاندفع «صادق» ورجاله على الزفة من الناحية الآخرى، وفى الحال هجم «قاسم» ورجاله على مقدمة الزفة هجمة رجل واحد..

استرد «سوارس» ورجاله أنفاسهم من شرك المفاجأة.. فاشتبكوا فى معركة مريرة واشتد ارتطام النبابيت، وسالت الدماء على الأوجه والرءوس، وتحطمت المشاعل، وضرب «سوارس» بقسوة وبخفة، واشتد الضرب، وتكاثف الحقد، ووجد «سوارس» نفسه بغتة أمام «صادق»، فوجه إليه ضربة تلاقت مع ضربة وجهها إليه «صادق».. ولمح «حسن» منقضا عليه كالوحش، فتحول نحوه وهو يطفح بالغضب.. وأطلق نحوه ضربة هائلة تفاداها «حسن» بوثبة جانبية وطعن «حسن» «سوارس» فى أثناء وثوبه فأصاب عنقه.. وعطلته الطعنة لحظات سيطر خلالها «حسن» على توازنه ووجه ضربة شديدة بقوته الخارقة فأصابت وجه «سوارس»، وفجرت الدم من رأسه، وسرعان ما تراخت قبضته عن النبوت، ثم سقط على ظهره دون حراك وارتفع الصياح: «سوارس قتل!»

وبذلك قويت عزيمة رجال «قاسم» فاشتدت ضرباتهم، وتخاذل رجال «سوارس»، وهالتهم كثرة الساقطين من رجالهم فتقهقروا ثم أسلموا أرجلهم للفرار، وأخذ رجال «قاسم»

فى التجمع حوله وهم يلهثون.. وقال «قاسم»: يوم النصر قريب، يوم يلقى بقية الفتوات نفس المصير، يوم نصبح سادة حارتنا، وأصحاب وقفنا، وأحفادا بررة لجدنا.

* * *

وانتشرت – فى حارتنا – الأنباء السود كالحريق، فتعالى الصوات فى مساكن كثيرة، وانطفأ العرس، وانطلقت الحناجر تنعى «سوارس» ثم تنعى من قتل معه من رجاله..

وراح كثيرون ينفّسون عن غضبهم بتهديدات زاعقة، وإن بدت الحارة فى اليوم التالى فى مأتم شامل. وبادر الفتوات إلى الاجتماع فى بيت «الناظر رفعت» الذى ركبه الغضب والحنق...!

• وقال «لهيطة» بغضب: راعى غنم ؟! والله لقد هزلت..!

• ولم يخف «الناظر» قلقه فقال: «راعى غنم؟ ولكنه أصبح ذا خطر.. استفحل شره، وهو الآن معتصم بالجبل، ولن تقف أطماعه عند حد..

• وتبادلوا النظرات فى غضب.. فواصل «الناظر» حديثه الغاضب قائلا:

• وهو يلوح للناس بإغراء. هذه هى مصيبة حارتنا. إنه يعد الناس بالوقف.. وهو يعد بالقضاء على الفتونة، فيطرب لذلك الجبناء وما أكثرهم! حارتنا حارة الجبناء، وستجدون أهلها دائما مع الغالب، ففى القعود هلاكنا..

• وراحوا يتشاورون: فيم العمل؟ وكيف السبيل؟

• وتعالت ضجة فى الخارج غير مألوفة كأنما تنذر بشر مستجد.. وعلم الجميع أن «الغنام» انضم إلى «قاسم» سائقا معه جميع أغنام الحارة..

• فتصايح الجميع يسبون ويلعنون «زقلة» الغنام.! .....

* * *

واستقبل «قاسم» «زقلة» الغنّام بحماس.. وألقى «قاسم» نظرة على مجمع الأغنام وترددت أقوال بأنها حلال لقاء ما نهبوا من أموال فى الحارة. وفى أثناء النهار انضم إلى «قاسم» أفراد من الحارة بكثرة لم تعهد من قبل فاشتدت الغزائم، ورسخت الآمال، استيقظ «قاسم» فى الصباح الباكر لليوم التالى على ضجة غريبة، فرأى رجاله قادمين نحوه فى

عجلــة واضطراب وهم يردّدون أن الحارة جاءت للانتقام وهم مجتمعون أســفل الممر.. وهم على مبعدة خطوات من الخلاء.. ونظر «قاسم» نحو رأس الممر فرأى «حسن» وبعض الرجال واقفين عنده بأيد قابضة على الأحجار وقال: نســتطيع أن نصدّهم هناك بعشــرة رجال.. وقال البعض لاأظن أن لدينا من الماء ما يكفينا أكثر من يومين.. فقال «قاسم»: «لقد جاءوا للانتقام لا للحصار، وإذا حاصرونا عمدنا إلى المسلك الآخر لفك الحصار».

ومضى «قاســم» يفكر وهــو يحافظ على هدوء وجهه الذى تتطلــع إليه الأبصار.. وقال «حســن»: «ليس أمامنا إلا أن نضرب.. ســيتعذر علينا التجوال سعيا وراء أرزاقنا، فليس أمامنا إلا أن نهجم».

• أيده «قاسم» قائلا إنه بالصواب نطق.. وتفكر «قاسم» مليا ثم قال:

• «إذا قتل «لهيطة» ضمنا النصر.. وإذا سقط تقاتل «جلطة» و«حجاج» على الفتونة»

وتعالــت الأصــوات بأن هجوما وقع مــن الناحية الأخرى، فارتــدّ الرجال عن الحافة منطلقــين نحو الســاحة فيما يلى الجنوب. وأوصى «قاســم» المدافعين عــن الممرّ بمزيد من الانتبــاه. لاح للجميــع «لهيطة» وهو يقــود عصابة كبيرة من الرجــال قادمين من جنوب الجبل. قال «قاســم»: شاغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك الجنوب..

ومضى القادمون يقتربون.. ودخلوا فى مجال البصر، فقال «صادق»: ليس فيهم «جلطة» ولا «حجاج». وأدرك «قاسم» أن «جلطة» و«حجاج» على رأس المحاصرين أسفل الجبل، وحدس أنهما سيهاجمان الممر مهما كلفهما ذلك من مشقة.. لكن «قاسم» لم يفض بوساوسه إلى أحد، واندفع «قاسم» مهاجما فاندفع حوله الرجال، وأقبل الآخرون.. وفى الوقت ذاته انهالت الطوب من المدافعات على رأس الممر على المهاجمين من أســفل.. واشــتبك «قاســم» ورجاله مع المهاجمين وكانت الغلبة «لقاســم» ورجاله.. واشــتد القتال، تلاطمت النبابيت بلا هوادة، وانبثقت الدماء تحت أشــعة الشــمس المحرقة وتوالت الإصابات فخرّ الرجال تباعــا من الفريقين وكان ممــن تمكن الرجال من قتلة «لهيطة».. وصرخ «حســن» بصوت كالرعد: «لهيطة» قتل.. فتوتكم قتل.. انظروا الى جثته..!

وأحدث مقتل «لهيطة» غير المتوقع أثرا عنيفا، فاشتدت عزائم، ووهنت عزائم، واندفع الأمل واليأس فى قتال مرير.. وانتشر المنطرحون على الأرض، والتمعت الدماء تحت أشعة الشمس.

وانتحى «قاسم» جانبا فأرسل بصره نحو رأس الممر الذى أقلقه أمره، فرأى «صادق» ورجاله يصبُّون الطوب فى توتر شديد دل على اقتراب الخطر المتصاعد.. قدَّر خطورة الأمر فمضى من فوره إلى جثة «لهيطة» وراح يسحبها - يساعده «حسن» - نحو رأس الممر، وتعاون هو و«حسن» على حمل الجثة.. وقذفا بها معا فتهاوت ثم تدحرجت حتى وقعت تحت أرجل الصاعدين، ووقع اضطراب واضح.. وصاح «قاسم»: تقدموا.. هذه جثة فتوتكم، وورائى جثث رجالكم الآخرين. تقدَّموا فنحن فى انتظاركم. وأشار إلى الرجال والنساء فانهال الطوب كالمطر حتى توقفت طليعة المهاجمين، وأخذوا فى التراجع البطئ.. وصاح «قاسم»: يا «جلطة»، يا «حجاج».. أقدما ولا تهربا!.. فارتفع إليه صوت «جلطة» وهو يصيح انزلوا أنتم، ثم ارتفع صوت «جلطة» بالشتائم فتناول «قاسم» حجرا وقذفه به بكل قوته. وتواصل انهمار الأحجار.. وأسرعت الموجة المرتدة، حتى أوشكت أن تنقلب جريا. وراح رفاق «قاسم» يضمدون جراحهم وقد أراحهم رؤيتهم لأعدائهم يركضون فى نهاية الممر.. وأووا إلى الأكواخ، وأخذت النساء فى تضميد الجراح..

- وأخذت «حسن» صحوة ابتهاج فقال:
- سننتصر عما قريب، «فتودع حارتنا عهد الدم والإرهاب».
- فقال «قاسم»: «سحقا لعهد الدم والإرهاب».

* * *

كارثة..! كارثة لم تشهد الحارة لها مثيلا من قبل، رجع الرجال صامتين ذاهلين ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة، والربوع ترتج باللطم والعويل، وتبيَّن أن حىّ الجرابيع قد غادر بأسره الحارة خوفا من الانتقام، وكان المعروف أنهم سينضمون حتما إلى ابن حيهم المنتصر.. وخيَّم الحزن على الحارة المكللة بالحداد.

وثار تساؤل عن فتونة الحارة، ولمن تكون؟ وثار الأمر فى كلا الحيين: «جبل» و«رفاعة».. وعلم «الناظر رفعت» بما تهجس به الخواطر فدعا «حجاج» و«جلطة» إلى مقابلته، فذهب الرجلان وحول كل منهما رجاله الأشداء حتى غص بهم بهو البيت، واحتلّ كل فريق جناحا من البهو. وأخذ «الناظر» يبصّرهم بدقة الموقف، وضرورة «الوحدة» بينهم جميعا. وقال «الناظر» فى حسم إنه لم يعد فى الحارة إلا حيان: «جبل» و«رفاعة» فليكن عليهما

فتوتـان ولا ضـرورة للفتوة الواحد.. وأثـار ذلك التلاحى بين «حجـاج» و«جلطة». ولكن «الناظر» حسم الأمر واتفقوا على ألا يهاجموا «قاسم» ورجاله، بل يحبسونهم فى الجبل، ويحاصرونهم من جميع المنافذ حتى تنفذ حيلهم فيضطروا إلى التسليم، وانصرفوا على هذا الرأى وإن كان قد تولّد فى الحارة – رغم التعاهد والأقسام – جو خفى من الريبة.. وعند مسـاء اليوم السـابق ليوم الخروج تجمعوا فى شـتىّ المقاهى، وراحوا يطربون ويسكرون.. حتى وقت متأخر من الليل، وودّع الأعوان «حجاج» أمام ربعه بحىّ «رفاعة» وهو فى غاية الانبسـاط والسـلطنة، ودفع الباب ومضى فى الدهليز.. وإذا بشبح ينقض عليه من ورائه، فسـد فمه بيده، وطعنه بسكين فى قلبه. انتفض الجسـد بقوة بين يديه، فلم يتركه حتى أنامه على الأرض بلا حراك فى الظلام الدامس.

* * *

اسـتيقظت الحارة علـى ضجة صارخة مفزعـة.. تجمهر جمع غفـير، واختلط اللفظ بالصـراخ والعويـل: فقد قتـل «حجّاج» فتوة «آل رفاعـة». وهرع إلى الربـع الرفاعية من كل حـدب وصـوب. وما لبث أن جاء «جلطة» ورجالـه، وصاح «جلطة»: مصيبة ولا كل المصائب، ليتنى كنت فداك يا «حجاج».!

• مع إعلانه لحزنه لم يلق «جلطة» كلمة مجاملة واحدة.. فعاد يقول:

• مكيدة دنيئة! ليس الغدر من شيم الفتوات.. لكن «قاسم» راعى غنم لا فتوة..

• صاحت امرأة فى حدة ملتاعة: «مباركة عليك فتونة الحارة يا جلطة»

تقلصت سحنة «جلطة» بالغضب.. وكان ما أمكنه من رد حاضر هو أن رفع صوته بغلظة مصدرا أمره للنساء بأن يغلقن أفواههن فى هذا اليوم الأغبر.. ثم راح يؤكد أنها مكيدة دُبرت بليل للإيقاع «بيننا».

هتفت امرأة مسـتنكرة أن تكون مكيدة.. بينما «قاسـم» ورجاله فى الجبل، و«حجاج» قتل فى حارته بين قومه وجيرانه الطامعين فى الفتونة!

فلم يملك إلا أن ينفث عن غضبه بأنها امرأة مجنونة. ومجنون كل من يتقبل ظنها.

ومضى من توه نحو بيت «الناظر»، واشتد اللغط بعد ذهابه، وإذا برجلين – «رفاعى» و«جبلى» – يتشـابكان فى شـجار عنيف، وتبعتهما على الآثر امرأتان، وتضارب غلمان

من الحيين، واستمرت معارك قذف وسب من النوافذ، وشاع الاضطراب فى الحارة حتى تجمهر فى كل حى رجاله، وارتفعت النبابيت وخرج «الناظر» من بيته طالبا إلى الجميع استعمال العقل، لأن الغضب سيعميهم عن عدوهم الحقيقى قاتل المعلم «حجاج».. فاستنكر الرفاعية قوله، وهدد «آل جبل» بأنهم لن يخضع الرفاعية لهم، وأن «آل جبل» سيدفعون الثمن غاليا.. فابتأس «الناظر» وراح يضرب كفا بكف فى حسرة وخشية من أن يدرك الخراب الحارة فتعالت الأصوات بأن الخراب خير من «جلطة»، وراح الرجال من حى «رفاعة» يقذفون الآخرين بالطوب فيردّ «آل جبل» بالمثل، وسرعان ما اشتبك الحيان فى معركة دامية، واشتد الضرب فى قسوة بالغة، وتواصل الاشتباك فترة طويلة..

وراحت نسوة تشرن نحو طرف الحارة.. فلما التفت الرجال إلى حيث تشير النساء رأوا «قاسم» أمام البيت الكبير يتقدم فى عصبة من رجاله تسبقهم نبابيتهم، ورأوا فى الطرف الآخر «حسن» يتقدم فى عصبة أخرى، ضج المكان بصيحات التحذير، وتتابعت الأحداث فى سرعة خاطفة.

أمسك أهل الحيين عن التضارب، وبدافع عفوى تكتلوا وتداخلوا، وانقسموا فريقين لمواجهة القادمين.. وصاح «قاسم» بأعلى صوته:

«لا نريد أذى لأحد، لا غالب ولا مغلوب، أبناء حارة واحدة، وجد واحد، والوقف للجميع..».

وصاح «جلطة» فى مقابلة ذلك بأنها: مكيدة جديدة.. وصرخ «جلطة».. اهجموا..

وانقض «جلطة» على مجموعة «قاسم» وتبعه رجاله، وانقض آخرون على «حسن» ورجاله. وتردد كثيرون، وتسلل الجرحى والمنهكون إلى الربوع. ثم تبعهم المترددون.. ولكن «جلطة» وعصابته بقوا فى الميدان خاضوا معركة شديدة، تضاربوا بالنبابيت والرءوس والأقدام والأيدى، ركز «جلطة» هجومه على «قاسم» بحقد أعمى، تبادلا ضربات عنيفة، مضى «قاسم» يتلقى ضربات خصمه فى خفة وحذر، لكن رجال «قاسم» أطبقوا بكثرتهم على عصابة «جلطة».. حتى سقط النبوت من يده، واندفع يجرى كالثور الذبيح، ثم انكبَّ على وجهه..

انتهت المعركة.. سكتت صرخات التضارب والقتال.. وقف المنتصرون.. خاطب «صادق» «قاسم» قائلا: فى ثقة وطمأنينة: انتصرت - نصرك الله - إن جدنا لا يخطئ فى اختياره، ولن تسمع حارتنا العويل بعد اليوم.

إبتسم «قاسم» إبتسامة هادئة، ثم استدار فى عزم موجها بصره نحو بيت «الناظر»، فاتجهت الرءوس إليه..

* * *

سار «قاسم» على رأس رجاله إلى بيت «الناظر»، فوجدوا الباب والنوافذ مغلقة، والصمت والكآبة يخيمان عليه.. لم تنفتح الأبواب للطرق، ولكنها انفتحت أمام دفعات الرجال القوية، حيث اندفع الرجال وراء «قاسم». لم يعثروا على أثر لأى من قاطنى الدار، تبينوا أن «الناظر» وأهله وخدمه قد غادروا البيت هاربين..

وهكذا تم النصر «لقاسم» وأصبح رجل الحارة دون منازع، وتولى شئون النظارة لأنه كان لابد للوقف من ناظر. وعاد كل من هاجر من الحارة خوفاً من الفتوات، وعلى رأسهم المعلم «يحيى».. ومضت أربعون يوما فى هدوء فالتأمت الجراح، وسكنت النفوس، واطمأنت القلوب.

ويوما وقف «قاسم» أمام البيت الكبير ودعا إليه أهل الحارة رجالا ونساء من جميع الأحياء فمضوا إليه فى لهفة، وتطلّع. واكتظ بهم المكان، وبدا «قاسم» باسما رقيقا مهيبا معا.. فأشار إلى البيت الكبير وهو يقول: هنا يقيم «الجبلاوى». جدّنا جميعا. لا تمييز فى الانتساب إليه بين حىّ وحىّ، أو فرد وفرد، أو رجل وامرأة.. وحولكم وقفُه، سيكون لكم جميعا على السواء. وعلينا أن نحسن استغلاله حتى يكفى الجميع ويفيض..فنحيا كما تمنى «أدهم» فى رزق موفور، وطمأنينة شاملة، وسعادة صافية غناء.. لن يوجد فى حارتنا بعد اليوم فتوة.. بيدكم أنتم ألاّ يعود الحال كما كان. راقبوا ناظركم، فإذا خان اعزلوه، وإذا نزع أحدكم إلى القوة اضربوه، وإذا ادعى فرد أو حى سيادة أدبوه..

ووزّع «قاسم» الريع على الجميع بالعدل بعد أن احتفظ بقدر للتجديد والإنشاء.. ومضى عهد فى تجديد وبناء وسلام.. وكان ثمة آحاد من «آل جبل» يضمرون غير ما يظهرون.. بل إن الجرابيع رأوا فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله من بعد، جمع بين القوة والرقة،

والحكمة والبساطة، والمهابة والمحبة، والسيادة والتواضع، والنظارة والأمانة، وإلى ذلك كان ظريفا بشوشا أنيقا، وعشيرا تطيب مودته.. لم يتغير شئ من شأنه اللهم إلا أنه توسّع فى حياته الزوجية – وقال «عمّه زكريا»: إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا.

ومهما يكن من أمر فإن حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقا، وبأن أمرها قد آل إلى نفسها دون ناظر يستغل، أو فتوة يستذل، ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الإخاء والمودّة والسلام.

• وقال كثيرون: إنه إذا كانت آفة حارتنا النسيان، فقد آن أن تبرأ من هذه الآفة، وإنها ستبرأ منها إلى الأبد.

• هكذا قالوا.. • هكذا قالوا يا حارتنا..!

* * *

(٥)
عرفة

كان هناك – فى حارتنا – تباين ظاهر، بين ما تقوله، وتتغنى به الرباب من أحاديث وأشعار عن «جبل» و«رفاعة» و«قاسم» من ناحية – وبين ما هو قائم فى واقع الحارة من ناحية أخرى، فالرباب يتحدث عن عدل ومساواة وإنصاف واحترام للجميع، والواقع يؤكد أن هناك قلة تضم «الناظر» والفتوات هى التى تتمتع وحدها بكل الخيرات، «للناظر» نصف ريع الوقف وللفتوات النصف الآخر، أما باقى أهل الحارة فلا شئ يعود عليهم من ريع الوقف بل ويتقاضى منهم الفتوات ما يفرضون من إتاوات، وأصبح حال الحارة فى انهيار مستمر وانحدار متصل.. ويحكون أن «قاسم» إذ توفاه الله فقد خلفه «صادق» فسار سيرته وإن كان قوم قالوا: إن «حسن» أولى بأن يتولى الأمر من بعده وإن كان «حسن» لم يساير رأى هؤلاء.. ولكن الذى حدث من بعد أن الحارة عانت بعد ذلك من الانقسامات ونشوب العديد من المعارك حتى قتل «الناظر» نفسه، وسادت الفوضى، فبحثوا عن آخر من بقى من نسل «الناظر» فتولّى أمر النظارة ليعيد الأمر إلى نصابه فيلتزم الحق والعدل لفترة ثم ما يلبث الطمع أن يستولى عليه، فتعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل بل إلى ما هو أسوأ

منه، وعاش أهلها قابعين، راضين، يجترُّون الإصغاء إلى هاتف من الأعماق يهتف بصوت خافت أنه ليس من المستحيل أن يقع فى الغد ما وقع فى الأمس، فتتحقق مرة أخرى أحلام الرباب، وتختفى من دنيانا الظلمات..!

* * *

وذات يوم رأت الحارة فتى غريبا قادما من ناحية الخلاء، يتبعه آخر كالقزم.. وكان الفتى أسمر اللون، مستدير العينين، حادّ البصر، تلوح فى عينيه نظرات قلقة نافذة، وفى حركاته ثقة واعتداد.. ولمّا سأله البعض عمَّن يكون ذكر أنه «محسوبكم «عرفة»، من أولاد حارتكم كالآخرين، وهو عائد بعد غيبة طويلة.. هو ابن خالدة الذكر: «جحشة نبين زين» بعينها ولحمها. وراحت النسوة يتبادلن الحديث عن أمه ويترحمن عليها.. ولكن ماذا عاد به بعد الغيبة الطويلة – وكان الجواب –: مصير الحىّ إلى حارته وأهله.. ودلوه على بدروم خال فى حى «رفاعة» منذ ماتت ساكنته حرقا – الله يرحمها – معلقين بأنه لا خوف عليه، لما وصفته به امرأة مطلة من نافذة بأن «هذا رجل تخاف منه العفاريت».. وتظاهر بالضحك والانبساط وهو يعلّق على ما سمع بقوله: «يا حارتنا يا حلوة، ما أرق ظرف أهلك! الآن عرفت لماذا نصحتنى أمى عند الوفاة بالعودة إليك!».

ومضى نحو الربع.. وهو ينال تعليقات ممَّن يلقاهم – قال رجل ساخرا: «عرفنا أمّه.. فمن ذا يعرف أباه؟» وصار ذلك مثار تعليقات متبادلة.. وعُرف منذ تلك اللحظة بأن اسمه «عرفة»، وأن لقبه هو «عرفة بن حجشة». ومضى الرجال والنساء يضحكون ساخرين.. ولكنه قبل أن يتسلم البدروم جاءه من يخبره بأن المعلم «عُجاج» فتوة الحىّ يطلبه.. فلم يتردد فى الذهاب إليه لتوّه.. وبادره بإرسال «التحيات المباركات على فتوتنا، من نحتمى بحماه، ونسعد بجواره» فكان تعليق «عجاج».. بأن هذا كلام حلو، ولكنه عملة لا يعترف بها وحدها.. دسَّ «عرفة» يده فى عبِّه وأخرج حقا صغيرا دقيقا وتقدم فى خضوع من المعلم ومدّ يده فتناوله المعلم بعدم اكتراث.. وقال «عرفة» فى ثقة لا حدَّ لها: «قمحه منه على فنجال شاى قبل (لامؤاخذة) بساعتين، وبعدها فإما أن ترضى عن محسوبك «عرفة» وإما أن تطرده من الحارة مشفوعا باللعنات.. وأضاف أن عنده أيضا البخور النادر، والوصفات العجيبة، الطبّ والدواء، الأحجبة.. وأن قدره يعرف حقا عند المرض والعقم والضعف»..

ومضـــى إلى البدروم.. ونظر فيما حوله بارتياح وهو يلاحظ أنه ليس عنده إلا نافذة واحـــدة فـــى الحجرة المطلة علـــى الطريق ومنها يمكن رؤيـــة الطريق من تحت خلال النافذة ذات القضبان الحديدية.. وراح ينعى حظه من أنه يعطى «فوائد للناس» ولكنه لا يلقى منهم إلا الإساءة..!

* * *

كان «عرفـــة» يرقب الحارة من وراء النافذة.. أرض الحارة على مســـتوى بصره بكل ما يدبّ عليها من أقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشـــرات وأطفال.. أما الوجوه والصدور فلم يكن ليراها، وكان كثيرا ما يردّد من مســـمع من صبيّة «حنش» أنه فى كل شـــبر من هذه الحـــارة تجد دليلا على وجـــود الفتوات ولكنك لن تجد دليلا واحدا على وجود أناس مثل «جبل» أو «رفاعة» أو «قاسم».. وأضاف «عرفة» قوله: «إنهم وجدوا» وراح يسأل «حنش»: «أليس كذلك ؟».. ولكن «حنش» لم يعره التفاتا، ولم يجب على سؤاله.. فقال «عرفة» إن كل واحد من أهل الحارة يفاخر برجله – «جبل» أو «رفاعة» أو «قاســـم» – بغباء وعمى. يفاخـــرون برجـــال لم يبق منهم إلا أسماؤهم، ولا يحاولون قـــط أن يجاوزوا الفخر الكاذب بخطوة واحدة..!

ومضـــى يتردد على جميع المقاهى، فيجد فـــى كل قهوة زبونا يعرفه.. وراحت الزباين تتردد عليه، ما بين امرأة تريد الفتك بأخرى فيردّها ردا حسنا، وما بين شيخ طاعن يطلب إليـــه «الهدية» فلا يبخل عليه.. وكان آخر مـــن زاره «عمّ يونس» بواب حضرة «الناظر»، فتلقاه «عرفة» مرحبا.. ومال «يونس» عليه ليهمس فى أذنه بأن «نظيرة هانم» حرم حضرة «الناظر»، تحلم أحلاما مزعجة ســـيئة حتى قلّ نومها.. فطمأنه بأن تلك حال عارضة تمرّ بســـلام، ولكن «يونس» يلح بقوله إن «الهانم» منزعجة.وقد.أرســـلته إلى «عرفة» ليجد لها شـــيئا مناســـبا. انتهز «عرفة» تلك الفرصة فقال له إن الأفضل أن يحادثها بنفســـه.. فقال البواب بحدّة: إن ذلك محال، أن تجىء هى إليه، أو يذهب هو إليها! فقال «عرفة» أنه يلزمه «منديلها» أو شـــئ من «طرفها»! فأحنى البواب رأســـه المعمم، وقام ليذهب.. وتلكأ «عـــمّ يونس» قبل خروجه ليطلب منه «الهدية» التى أعطى مثلها «لحجاج» فتوة «رفاعة». ولما ذهب البواب بالهدية ضحك «عرفة» و«حنش» طويلا وتساءل الأخير، لمن أخذ الهدية يا ترى؟ لنفسه أم «للناظر» أم «للهانم»؟..

ومضى «عرفة» إلى النافذة ينظر إلى الحارة فى الليل، يستمع إلى صوت الشاعر يأتيه من قهوة الحى.. ثم تحوَّل عن النافذة فى سأم وهو يتساءل: متى تكف حارتنا عن حكى الحكايات؟

* * *

فى حجرة البدروم الخلفية اتخذ «عرفة» و«حنش» مقر عملهما، وزوَّد الحجرة بكل ما هو ضرورى من أدوات العمل: أوراق الأحجبة، أتربة، جير، نباتات وتوابل، حيوانات ونباتات وحشرات مجففة، وأكوام من قطع الزجاج، وقوارير، ومياه، وسوائل ذات روائح نفاذة، وفحم، فضلا عن وجود كانون.. وراح «عرفة» يعبِّر عن تيهة بنفسه لأن كل من يقصده يعتمد عليه كل الاعتماد. وإن للسحر لذة. لذة استخراج مادة مفيدة من مادة قذرة، لذة الشفاء حين يأتمر بأمرك، وكان يضيف قوله إن أى مغفل ممنَّ يحسبون أنفسهم معلمين فى هذه الحارة لا يستطيع أن يدرك خطورة الأشياء التى تصنع فى هذه الحجرة المعتمة.. المجانين لا يدركون قيمة «عرفة» الحقيقية.. فالسحر شئ عجيب حقا، لا حدَّ لقوته، ولا يدرى أحد أين يقف..

وراح «عرفة» يقول: شاعر «آل قاسم» يقول إن «قاسم» أراد استغلال الوقف حتى يجد كلُّ حاجته، فيستغنى عن العمل، ويفرغ للسعادة – الغناء التى حلم بها «أدهم».. ولكن الغناء ليس هو الهدف الآخير! الأجمل حقا أن نستغنى عن العمل لنصنع الأعاجيب..!

لاحظ «عرفة» – من النافذة – أن شيئا جديدا اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته قهوة متنقلة.. مكونة من قفص.. صفت عليه علب البن والشاى والقرفة، وموقد، وكنجات، وفناجيل وأكواب وملاعق، وقد جلس عجوز على الأرض يروح على الموقد ليسخن الماء، على حين وقفت وراء القفص فتاة فى ربيع العمر.. كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية. وبدا أكثر زبائنها من أصحاب عربات اليد. وجعل «عرفة» يطيل النظر إلى الفتاة من بين القضبان: هذا الوجه الأسمر المتلفح بخمار أسود، وهذا الجلباب الذى يغطيها من العنق حتى القدمين، وهذه القامة الرشيقة والعينان العسليتان! هى ابنة العجوز! ودون تردد صاح بها «عرفة» طالبا فنجال شاى.. امتدت إليه عيناها، وبسرعة ملأت قدحا ومضت به إليه فتسلمه شاكرا ونقدها ثمنه، فذهبت دون انتظار لكلام، وتركته يحسوه قبل أن يبرد ودون أن يحوِّل عينيه عنها.. وقال فى نفسه: ما أسعد أن يملك فتاة بهذا

الشـباب، ولكن الأمـر يحتاج إلى قدر من النقود لم يوجد معه بعـد.. وانتبه «عرفة» على همهمة غريبة.. والناس ينظرون إلى أعلى الحارة ويرددون اسـم «السـنطورى» – الفتوة – فنظـر بميل فرأى الفتـوة قادما فى هالة من الأعوان ولما مرّ بالفتاة سـأل أحد رجاله: من الفتـاة؟ قالوا: «عواطف بنت عمّ شـكرون».. لعّب الفتوة حاجبيه فى ارتياح، ومضى نحو حيّـه، وشـعر «عرفة» بضيق وقلق.. ولـوّح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءتـه الفتاة فى خفه.. وسـألها وهو يشـير إلى الناحية التى ذهب إليها «السنطورى» وسـألها عمًا إذا لم يكن قد ضايقها، فقالت ضاحكة وهى تسـتدير لتذهب: سأسـتعين بك عنـد اللزوم، فهل تعين؟ حزت فى نفسه سخريتها الحزينة، فتضاعف ضيقه..!

* * *

تكاثـر زبائن «عرفـة» مع الأيام، وقد كانت فرصة كبيرة عندمـا رأى «عواطف» مقبلة عليه.. نسى مهابة المعلم التى يرتديها أمام زبائنه، ووقف مرحبا بها، ثم أجلسها أمامه، والدنيا لا تسـعه من السـرور، حيّاها بنظرة شـاملة، ولكنها سرعان ما توقفت على عينها اليسرى التى كادت تختفى وراء ورم ظاهر. وقالت إنها اكتفت بغسلها بالماء الساخن، فقال لها ما كان يجدر أن تنسـى صحتها، وبخاصة إذا تعلق الأمر بعينك الجميلة! ابتسـمت متأثـرة بالثنـاء على حين مدّ يده إلى رف خلفه ليأتى بلفافة يسـلمها لها قائلا: صرى ما فيهـا فى منديل، وضعيـه فوق بخار ماء يغلى ثم اربطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعـود عينك إلى جمـال أختها. تناولت اللفافةَ وحاولت أن تدفع الثمن فأبى وراح يتحدث إليها عن أبيها وعن الفتوّات الذين قالت عنهم إن جميع الفتوات لا قلوب لهم.. فقال لها بوجه متجهمّ. إنه لذلك يخشى عليها – الفتوات يهددّون الرزق والعرض والحب والسلام.. وعندمـا حدثته عن «جدنا» الذى «فى البيت الكبير» قـال بهدوء: نعم. أبوك يحدّث عن «قاسـم»، و«قاسـم» حدّث عن جدنا، هكذا نسمع، ولكنا لا نرى إلا «قدرى» و«سعد الله» و«عجاج» و«السـنطورى» و«يوسـف» نحن فى حاجة إلى قوة تخلصنا من العذاب، فماذا تجدى الذكريات..؟؟

توقف عن الحديث قبل أن يمضى قائلا: «إن الحارة فى حاجة إلى قوة، كما أننى فى حاجة إليك».

حدجته بنظرة استنكار، فابتسم فى جرأة، ومضى فى حديثه: «شابة طيبة مجتهدة، جميلة، تنسى فى غمرة العمل عينها حتى توَّرمت، ثم تجيئنى على ظن أنها فى حاجة إلىّ، فتنضح لها الحقيقة وهى أننى الذى فى حاجة إليها «قالت وهى تهمّ بالقيام» آن لى أن أنصرف».. وانصرفت بعد أن ألقت عليه تحيتها وتركته يترنم.. ثم مضى من بعد فى نشاط إلى حجرة العمل وهو يردد على مسامع «حنش» إنه لابد من القضاء على الفتوات.. وأضاف إن حب الفتاة حب للحياة.. كان «قاسم» على حق.. وراح يردد أنه حقا ما هو بفتوة، ولا برجل من رجال «الجبلاوى»، ولكنه يملك الأعاجيب فى هذه الحجرة، ومنها قوة لم يحز مثلها السابقون.. وغادر حجرة العمل إلى النافذة مرسلا ناظريه إلى القهوة المتنقلة، ولاحظ أنها تتجنب النظر إلى نافذته فدله ذلك على خطورة ببالها ،. وابتسم «عرفة». كيانه كله ابتسم، وفاض من قلبه الرضا..

* * *

وطرأ على حياة «عمّ شكرون» اضطراب غامض. كان يتكلم بصوت مرتفع جدا كأنه يخطب فى أحيان كثيرة، وكان يغضب شديد الغضب لأتفه الأسباب أو بدون أسباب؛ وكان يصمت طويلا حين يتطلب الأمر الكلام، وكان يقول أقوالا تعد فى الحارة كفرا.. وكان الكل ينظرون إليه فى إشفاق ويقولون: الكبر.. الكبر.. اللهم احفظنا.. ومضى «عرفة» يراقبه وهو يآسى لحاله وهو يقول لنفسه. لقد نعم بأيام العدل والأمان على عهد «قاسم»، ثم عاش أيام النكسة من بعده وقد كان من سوء حظه أن طال به العمر حتى عاش زمن الفتوات..

ولكن «عواطف» جاءت «عرفة» بقدح الشاى، فضحك لها مهنئا إياها بالشفاء، وطرب وهى تقول له إن الفضل لك وله! وتناول قدح الشاى وهو يقول لنفسه: ما أجدر أن يخطو الخطوة الحاسمة، وهو رجل لا تعوزه الجرأة غير أنه يجب أن يعمل حسابا «للسنطورى».

وترامت من بعيد ضجة وهتاف.. وبغتة ظهر «السنطورى».. حتى وصل أمام قهوة «شكرون» وتفحص وجه «عواطف» وهو يطلب «واحد سادة».. قدمت «عواطف» له الفنجال، وهو يبتسم إلى الفتاة إبتسامة وقحة كشفت عن أسنانه الذهبية.. قال «السنطورى»: تسلم يدك الجميلة – وأعطاها الفتوة قطعة من ذات الخمسة قروش ولم ينتظر، ومضى عنها قبل أن تعطيه الباقى فنهض«عمّ شكرون» على رغم ضعفه وأخذ الفكة ومضى إلى المقهى ثم بعد

قليل عاد إلى مجلسه، وما لبث أن أغرق فى الضحك.. ثم وقف صائحا: يا «جبلاوى».. يا «جبلاوى». والتفتت نحوه الأعين من النوافذ والأبواب والمقاهى.. ثم هاج سرورا: يا «جبلاوى» حتى تلازم الصمت والاختفاء؟ وصاياك مهملة، أموالك مضيعة، وأنت فى الواقع تُسرق كما يُسرق أحفادك يا «جبلاوى».. وهتف الصغار، ومضى العجوز يكمل قوله: يا «جبلاوى» ألا تسمعنى؟ ألا تدرى ما حل بنا؟ لماذا عاقبت «إدريس» وقد كان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا..! يا «جبلاوى»..!

عند ذلك خرج إليه «السنطورى» غاضبا متوعدا: عليك اللعنة يا وغد الأوغاد..! واتجه نحو العبث وقد أعماه الغضب وضربه على رأسه بقبضته. ترنح الرجل وكاد يهوى، لولا أن أدركته «عواطف».. وعادت به إلى البيت يساندهما «عرفة».. والعجوز يردِّد بصوت ضعيف: يا «جبلاوى».! يا «جبلاوى»..!

* * *

وقبيل الفجر شقَّ صوات مولول السكون. عرف الناس أن «شكرون» مات. وقالت بطانة «السنطورى»: «الله يجحمه. عاش قليل الأدب. وقلة الأدب كانت السبب فى موته».. ولما حملَ نعش «شكرون» لم يكن وراءه إلا «عواطف» و«عرفة».. وكان الأعجب أن «السنطورى» انضم إلى الجنازة، الهمَّ أن حال الجنازة تغيَّر فى غمضة عين إذ تسارع إليها الكثيرون.. وراح «السنطورى» يعزِّى «عواطف» بقوله: (البقية فى حياتك يا «عواطف»!) نظرت إليه فى تحدٍّ وقالت بكل جرأة: تقتل القتيل وتمشى فى جنازته ؟! وتعالت أصوات كثيرة تقول «لعواطف»: «وحدى الله، الآجال بيد الله وحده» صاحت «عواطف» فى وجه «السنطورى»: «قُتل أبى بضربة يدك» قال «السنطورى» «الله يسامحك يا «عواطف»» قالت «عواطف»: «ربنا المنتقم». مال «عرفة» على أذن «عواطف» هامسا: «خلى الجنازة تفوت بسلام» وما يدرى «عرفة» إلا ورجل من أعوان «السنطورى» يهوى بكفه على وجهه ويصيح فيه: «يا ابن المهبولة، ما أدخلك أنت بينها وبين المعلم ؟» التفت «عرفة» نحوه فى ذهول. فتلقى ضربة أشد من الأولى، وآخر صفعه وثالث بصق على وجهه، وراح يتلقى العديد من الإهانات حتى وجد نفسه مطروحا على الأرض.. وتحامل على نفسه وعاد هو و«حنش» إلى البدروم.. وكان ما طلبه منه «حنش» أن يصرف نظره عن هذه البنت «وإلا فعلينا السلام».

صمت «عرفة» مليا، وهو ينظر إلى الأرض مفكرًا، ثم رفع وجهها مكفهرا بالإصرار المخيف، وهو يقول: «ستراني متزوجا بها أقرب مما تتصور.. وسوف يرأس «عجاج» الزفة.. وسأعاود تجربة الزجاجة الليلة فى الخلاء..».

لزم داره لا يبرحها أياما، دون أن تنقطع صلته «بعواطف» عن طريق النافذة ذات القضبان، ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد، وقال لها فى صراحة «يحسن بنا أن نتزوج فى الحال» ولم تفاجأ الفتاة بالطلب ولكنها قالت فى حزن: إن موافقتها ستسبب له من المتاعب ما لا يتحمل. قال بثقة: قبل «عجاج» أن يشرِّف حفلنا». اتخذت الخطوات فى تكتم شديد حتى تم كل شئ وعلمت الحارة – فجأة – أن «عواطف» ابنة «شكرون» تزوجت من «عرفة» الساحر، وانتقلت إلى داره وأن فتوة «آل رفاعة» – «عجاج» – سيشهد الزواج. ذهل كثيرون، وتساءل آخرون كيف تم ذلك..؟ أما أهل الخبرة فقالوا: يا داهية دقى.

* * *

اجتمع كلا «الفتوتين» مع أعوانه.. وسرى نبأ الاجتماعين فتوتر جو الحارة وسرعان ما خلا الموقع من الباعة.. والمتسولين.. والأطفال.. وأغلقت الدكاكين والنوافذ.. وما إن خرج أحد الفتوتين برجاله إلى الحارة حتى خرج الآخر لتوّه. واحتدم الشر، فلم يبق على اندلاع اللهيب إلا لمسة.. وراح الفتوتان يتلاحيان بالكلام الذى ينطلق من الفم كأنه الصياح الذى يهز المكان.. ولما سئل «السنطورى» عمَّا فعل غريمه قال إنه حمى رجلا وهو يتحداه – فكان جواب «عجاج» أنه ما فعل الرجل إلا أن تزوج بنتا وحيدة بعد وفاة أبيها.. و«عجاج» شهد زواج كل «رفاعى». وفتح ذلك باب التلاحى والصراخ بين الطرفين وانتقلت إلى اللعن وتبادل الشتائم، وارتفعت النبابيت لولا أن أدركها صوت كالخوار يصيح فى لهجة آمره: «عيب يا رجال» واتجهت الرءوس نحو مصدر الصوت فرأوا فتوة الحارة: المعلم «سعد الله» وهو يشق طريقه بين الطرفين حتى وقف فى المنطقة بين الحيين وهو يأمرهم بإنزال النبابيت، فكانت الاستجابة الفورية وراح «سعد الله» يوجِّه نظره إلى كل من الإثنين الواحد بعد الآخر، ولكنه قاله أمرا حاسما. لا أحب الآن أن أسمع كلام أحد. تفرَّقوا بسلام.. مذبحة من أجل «مرة» يا خسارة الرجال!.

تفرق الرجال فى سكون، ورجع «سعد الله» صوب داره..

وكان «عرفــة» و«عواطف» داخل البدروم يتابعــان الأحداث، فلما انفضت على خير، ســألت «عواطف» عما إذا كانت المسألة انتهت عند ذلك نفخ «عرفة» فى صراحة وقال إن أى فتــوة لا يؤمــن جانبه. فكان جوابها أنها تعرف ذلــك، وإن بها جرحا لن يلتئم حتى ترى مصرع من أحدثه..

وتطرق بينهما الحديث بعد ذلك إلى الواقف وعجزه عن العمل، وإلى ما يملكه «عرفة» من ألوان الســحر التى تجعله قادرا على كل شــئ. بما فى ذلك تمكنه من القضاء على الفتوات أنفســهم، وتشــييد المبانى، وتوفير الرزق لأولاد حارتنا كافة.. وعندما قالت له «عواطف» إنه «فى زمن قصير حقق «قاســم» العدالة بغير سحرك» أجابها بقوله أنها سرعان ما ولّت. أما السحر فأثره لا يزول. ولكنه لن يؤتى أثره الحق إلا إذا أصبح الجميع سحرة، وذلك لن يتحقق إلا إذا تحققت العدالة، بأن نفذت شروط الواقف، فيستغنى أكثرنا عن الكدّ ويتوفر على الســحر.. ولما تشــككت «عواطف» فى حديثه ووعده قال لها متسائلا: ولماذا لا نذهب «للجبلاوى»؟ مضيفا قوله أنه منذ عاد إلى الحارة وهو يفكر وحده فى أشياء لا تخطر ببال..

* * *

كانت «عواطف» وهى تراقب «عرفة» وتفكيره تتســاءل: ترى هل جُنَّ الرجل أم أعماه الغرور؟ وهى فى الواقع لم يكن يكدِّر صفو أيامها الســعيدة ســوى رغبتها فى الانتقام من «الســنطورى» قاتل أبيها. لكن «عرفة» لم يكن يســايرها فى ذلك إذ كان يرى أن مثل هذا الانتقام هو جزء يسير من عمل كبير آل على نفسه القيام به.. وتساءلت «عواطف» عما إذا كان «عرفة» يحسب نفسه أحد الرجال الذين تغنّى بهم الرباب؟ لكن «الجبلاوى» لم يعهد إليه بشئ. وهو فضلا عن ذلك لا يبدو كبير الثقة «بالجبلاوى» أو بما تحكى الرباب. وهو يعطى الســحر كل همه وعمله وجهده وفكره ووقته.. كما أنه لا يفكر فى المســائل المطروقة بل يجاوز تفكيره شــخصه وأســرته إلى مسائل عامة لا يُعنى بها أحد.. وهو مع ذلك يحلم أحلاما عريضة عن السحر والمستقبل.. وكل هذا يهون إزاء رغبته الجنونية فى التسلل إلى البيت الكبير! وعندما تســأله عن دواعيه لذلك يكون جوابه: «لأســأله المشورة فيما ينبغى أن تســير عليه الحارة.. أريد معرفة شــروط الواقف العشــرة.. أريد أن أطلع على الكتاب

الذى طرد بسببه «أدهم» إن صدقت الحكايات.. فأنا لا أدرى ما الذى يجعلنى أومن أنه كتاب سحر، وأعمال «الجبلاوى» فى الخلاء لا يفسّرها إلا السحر..» ولم توافقه «عواطف» على أفكاره.. ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه.. وراح يصارحها بأن حجرته الخلفية علمته ألاّ يؤمن بشئ إلا إذا رآه بعينيه وجرّبه بيده. فلا محيد له عن الوصول إلى داخل البيت الكبير. ففى ذلك نهاية لما يعيش فيه من حيرة.. ويئست «عواطف» من مقاومته ولم تملك إلا أن ترفع يديها بالدعاء له.. وقد سار «عرفة» و«حنش» لصق الجدران حتى بلغا السور الخلفى للبيت الكبير فيما يلى الخلاء.. وشرع الأخوان فى حفر الأرض تحت السور ورفع الأتربة. عملا بجدّ وعزم حتى امتلأ صدراهما برائحة ترابية.. وتوقفّ «عرفة» بعد جهد وهو يقول: «حسبنا هذا الليلة» ثم مضيفا ضرورة سدّ الفتحة باللوح الخشبى قبل تغطيتها بالتراب، وعادوا إلى البيت.. وهو يقول لها إنها لا يجب أن تستهين برأيه، وأنها ستغير رأيها عندما تشهد ما يحدث فى الغد.. فكان جوابها: «لى فى السعادة فرصة وفى الهلاك ألف فرصة».. وراحت تنظر إلى زوجها فى إشفاق..».

* * *

أتما حفر الحفرة، وشدّ «حنش» على يد «عرفة» مودعا الآخر فى أعماق الحفرة ،وانبطح «عرفة» على بطنه وراح يزحف خلال الممر المعبق برائحة الأرض، وما زال فى زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير.. تنسّم عطر الحديقة، وشذا عجيبا كأنه خلاصة الخلاصات من الورد ومن الياسمين، مذابة فى ندى الفجر.. وراح يزحف على أربع فى حذر شديد أن يحدث صوتا – متجها نحو البناء الكبير ولاقى فى رحلته من الارتياح ما لم يلاق فى حياته من قبل. ومضى يزحف لصق الجدار حتى مسّت يده أولى درجات السلم المفضى إلى السلاملك. دار زاحفا حول الدرابزين ثم أخذ يرقى الدرج. رفع يده وفتح الباب، ثم زحف داخلا، وجد نفسه فى ظلمة حالكة.. فأجال يده أمامه حتى مسّ أولى درجات السلم، وانتهى إلى ردهة مضاءة بمصباح فى كوة الجدار. سار على أطراف أصابعه نحو الباب.. ودفع الباب فانفتح... تسلل رادا الباب وراءه.. وعبثا حاول أن يرى شيئا. وبعد قليل شمّ رائحة بخور زكية أفعمت قلبه قلقا. لم يعد شك فى أنه فى مخدع «الجبلاوى». متى يألف الظلمة؟ كيف يلمّ نفسه المبعثرة ؟.. لكن حركة مفاجئة ندّت من

ركـن الحجرة البعيد تصلبّت لها شـرايينه.. لبد وراء المقعد، سمـع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب.. ولكنه رأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردهة الخارجية يتسـرب إلى ما وراءه.. وخرج شـبح تاركا وراءه الباب مواربا، واتجه يمينه فتبيّنه: امرأة عجوز سـوداء نحيلة الوجه.. لعلها خادم.. ونظر من جانب المقعد إلى جانب المكان ليراه على الضوء الباهت المتسـلل، فميزٌ أشباح المقاعد والكتب، وتراءى له فى الصدر رسم فراش كبير ذى عمد وناموسية.. لن يكون هذا الفراش الفخم إلا «للجبلاوى». إنه الآن نائم هناك.. أشعل شمعة. رأى عينيين تنظران إليه – على رغم ذهوله – أدرك أن العينيين لعجوز أسـود يرقد على فراش فى مواجهة الداخل.. وبحركة غير إرادية ولا شعورية انقض على العجوز الأسود فأطبق بيمناه على رقبته، وشد بكل قوة أعصابه.. وسقطت الشمعة من يسراه، فانطفأت. وفى الظلام تحرك العجوز حركة أخيرة ثم خمد.

وتراجـع «عرفة» لاهثا حتى التصق ظهره بالبـاب، ومرت الثوانى وهو فى جحيم من العذاب الصامت، وشعر بقواه تنحدر، وبأن الزمن بات أثقل من الذنوب.. فهل جاء سعيا وراء قـوة يناضـل بها المجرمين، فانقلب وهو لا يدرى مجرما. اتجه رأسـه فى الظلام إلى الركن الذى ظن الكتاب معلقا به، ودفع الباب ثم تسلّل داخلا. وزحف بحذاء الجدار إلى الباب.. أين سـيد البيت؟ سـوف تحول جريمته بينهما إلى الأبد، وشعر بالخيبة والفشل حتى أعمق أعماقه..

فتـح الباب برفق فأغشـى النور عينيـه.. أغلق الباب، ومضى علـى أطراف أصابعه، وهبط السلم فى ظلمة حالكة، وعبر السلالم إلى الحديقة، وإذا بالنائم فى السلاملك يستيقظ متسائلا: «من؟» فلبد «عرفة» لصق الجدار، وقد أمدّه الفزع بقوة.. ولما استقر الصمت زحف على أرض الحديقة حتى السـور وراح يتحسس موضع الثغرة، ودخلها ليرتطم فى نهايتها بقدم تركله فى رأسه!. ....

* * *

وثـب على صاحب القدم فاشـتبك معه فى صـراع لم يدم طويلا.. فسـرعان ما أدرك أنه «حنش» الذى اسـتطالت عليه غيبة «عرفة» فدخل ليتنسـم الأخبار.. وعادا سـويا إلى البـدروم.. ومضى «عرفة» لتوّه ليغتسـل ليس فقط من آثار الـتراب بل من الدم الذى كان يسيل من يده ومن عنقه..!

ولكن سرعان ما فقد صوابه ليفيق بعد قليل، وبمساعدة رفيقيه حلَّ بينهما وهو يشعر بأن النوم بات أبعد عنه من «الجبلاوى»! لم يعد يحتمل عبء سره وحده، فقصَّ عليهما ما وقع له فى رحلته العجيبة، وانتهى والأعين تحملق فيه بريبة ويأس.. وغشيتهم فترة صمت قاتمة كالسهاد المرير... قال «حنش» بعدها: يالها من رحلة شاقة وخاسرة فصدَّق «عرفة» على رأيه ثم قال بنبرة جديدة حادة:

لكنها علمتنى أنه لا ينبغى أن نعتمد على شئ، سوى السحر الذى بين أيدينا..! ألا ترى أننى غامرت برحلة جنونية جريا وراء فكرة ربما كانت أبعد ما تكون عن ظنى؟.. إن تجربة الزجاجة ستنجح أقرب ممَّا نتصور، وستكون جدّ نافعة إذا احتجنا للدفاع عن النفس فالسحر لا نهاية له. ليس بين يدى منه اليوم إلا بعض الأدوية ومشروع زجاجة للدفاع أو الهجوم. أما ما يمكن أن يوجد فلا يحيط به خيال..

قالت «عواطف» فى ضجر إنه ما كان ينبغى أن يفكر إطلاقا فى تلك المغامرة. جدُّنا من دنيا ونحن من دنيا أخرى. وما كان «عرفة» يفيد شيئا من محادثته لو وقعت، ولعله نسى الوقف والنظار والفتوات والأحفاد والحارة..

• قال «عرفة» فى حدة:

• أنا عندى ما ليس عند أحد. عندى السحر، وهو يستطيع أن يحقق ما عجز عنه الآخرون..

• سألته «عواطف» متى ينام؟ فكان جوابه: عندما تخمد النار المشتعلة فى رأسى.

تنهد من أعماقه، ثم طرح رأسه على الجدار فى إعياء.. وإذا بصوت يجلجل فى السكون: «جثة الخادم اكتشفت!»..

• وجرى «عرفة» إلى الخارج فتبعاه على الأثر.. وفتحت نوافذ، وأطلت رءوس اتجهت جميعها إلى البيت الكبير.. وجاء رجل مهرولا نحو الجمالية، فلمَّا مر بهم سأله «عرفة» عمَّا جرى، فأجابه دون توقف:

• لله الأمر، من بعد العمر الطويل مات «الجبلاوى»..!

* * *

اجتمع الناس جميعا فى الحارة حول البيت الكبير، وتسربت الأخبار وشاعت، وبخاصة عقب زيارة «الناظر» للبيت زورة قصيرة ثم عودته إلى بيته، وتناقل الناس أن لصوصا سطوا على البيت الكبير من خلال نفق حفروه تحت السور الخلفى، فقتلوا خادما أمينا، ولما علم «الجبلاوى» بالخبر تأثر تأثرا لم تحتمله صحته الواهية فى تلك الذروة من العمر، ففاضت روحه..

هتف «عرفة» لما بلغه النبأ «ها هى ذى الأنباء تصدقنى» لكنه تذكر من توه أنه على أى حال تسبب فى موته فلاذ بصمت الخجل والألم..

وثارت الخلافات: أين يدفن «الجبلاوى» – تدخل «الناظر» ليقرر فضا للخلافات أن يدفن فى المسجد الذى أقيم فى مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير، ولاقى هذا الحلّ ارتياحا عاما ملحوظا.. ودفن «الجبلاوى» بعد أن دعى للصلاة عليه «الناظر» ورءوس «جبل» و«رفاعة» و«قاسم». ووارى بعد ذلك فى قبره والشمس تميل نحو الغروب. وفى المساء أقيم السرادق الذى احتشد فيه جميع أولاد الحارة.

الناس راحوا يتحدثون عن أمجاد «الجبلاوى»، قاهر الخلاء، وسيد الرجال، ورمز القوة والشجاعة، صاحب الوقف، والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة.

و«عرفة» وإن بدا حزينا بوجهه الميِّت، إلا أن ما كان يدور بنفسه، لم يكن يخطر لأحد على بال.. لقد أيقن أنه ارتكب جريمة.. ولابد من التكفير عن هذه الجريمة.. فكيف السبيل إلى ذلك؟ شئ واحد هو أن يبلغ السحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى «الجبلاوى».. فلتهبه الأيام القوة حتى يضمِّد الجرح النازف فى قلبه.. وعندما عاد «عرفة» إلى البدروم آخر الليل... راح يناقش «حنش» و«عواطف» فيما حدث... وكان آخر ما قاله بصوته المحموم:

إن كلمة من جدنا كانت تدفع الطيبين من أحفاده إلى العمل حتى الموت. موته أقوى من كلماته.. إنه يوجب على الآمن الطيّب أن يفعل كل شئ. أن يحلّ محله، أن يكونه، أفهمت ؟!

* * *

لم يوافق «عرفة» على أن يذهب «حنش» فى رفقته، قائلا له إن الهرب أيسر على واحد منه على اثنين.. ومضى إلى بيت «سعد الله» ودار حوله إلى أن وصل إليه من ناحية الشمال حيث الخلاء، واتجه نحو موضع السور، تحسس الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم خاض فى الممر الذى دأب على حفره – هو و«حنش» – ليلة بعد أخرى، زحف على بطنه حتى نفذ إلى حديقة بيت الفتوة – كمن وراء السور.. وتريث حتى انصرف الساهرون.. وتقدم يودعهم وأمامه البواب يحمل الفانوس. وما إن أغلق الباب وعاد يتقدمه البواب نحو السلاملك، حتى هم «سعد الله» بارتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه «عرفة» وأغمد خنجره فى ظهره فوق القلب.. ندّت عن الرجل آهه – ثم تقوض بناؤه.. وصرخ البواب صرخة مدوية وسرعان ما تدافعت أقدام. ومضى «عرفة» يجرى إلا أنه عثر فى جريه بقائم كأنه أصل شجرة مقطوعة، فسقط على وجهه، وهو يحسّ بألم يهرسه، ولكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة إلى النفق زحفا، وارتفعت الأصوات واشتد وقع الأقدام، ورمى بنفسه إلى النفق، وزحف بسرعة حتى خرج إلى الخلاء، ونهض وهو يئن ثم اندفع شرقا. وقبل أن يدور مع سور البيت الكبير التفت وراءه فرأى أشباحا تندفع نحوه. وسمع أصوات تدلّ على مكانه.. ثم لمح أضواء كالمشاعل وسمع ضجة، فاندفع فى الخلاء، ولكنه شعر أن الألم سيقهره عاجلا أو آجلا وبأن أقدام المطاردين تقترب منه.. عند ذاك أخرج الزجاجة التى كان قد استعد بإحضارها معه الزجاجة التى قضى الشهر فى تجربتها. ثم توقف عن الجرى، واستقبل القادمين، حتى تراءت له أشباحهم، ثم قذف الزجاجة تجاههم، وما هى إلا ثانية حتى دوّى انفجار لم تعرفه أذن من قبل، وتتابعت صرخات وتأوهات. وواصل جريه وقد كفّت الأقدام عن مطاردته. وتمكن أخيرا من العودة.. بآلامه وجروحه وسأل عن أثر الانفجار فكان الجواب أنه غطّى على الأثر الذى أحدثه مقتل «سعد الله».. ونظر إلى زوجته المنهكة فى تضميد جروحه برقة قائلا: «قتل فتوة الحارة، وغدا يبدأ التناحر بين الفتوات على مكانه.. عهد الفتوات موشك على الزوال، وأولهم قاتل أبيك..!».

لكن «عواطف» لم تجب.. وظلت عينا «حنش» تومضان فى قلق. وأسند «عرفة» رأسه إلى يده من شدة الألم..

* * *

«حضرة «الناظر» يطلب «عرفة» إلى مقابلته لاستشارة عاجلة».

كانت هذه الرسالة التى حملها «عمّ يونس» فى الصباح الباكر، وبادرت «عواطف» تبلغها «لعرفة» ومضى «عرفة» لتوّه ملبيا مرتديا خير ثيابه، ومداريا عرجا ظاهرا نتيجة للجرح الذى أصابه. سار البواب وهو يتبعه، وكانت الكآبة تغشى الحارة كلها.. وكان «قدرى» يجلس فى أقصى المكان فمضى إليه، وقف منه على بعد ذراع وهو ينحنى احتراما له حتى تقوس ظهره.. وأشار «الناظر» إليه أن يجلس إلى جواره.. فتردد ولكنه ما لبث أن استجاب للأمر.. وراح «قدرى» يرمق «عرفة» فى تفرُّس، وقد أغلق البواب باب البهو عليهما.. ولبث «عرفة» صامتا فى حال خضوع، و«الناظر» يرمقه بهدوء ثم قال «الناظر» فى نبرة هادئة كالمناجاة:

«عرفة»! لم قتلت «سعد الله»؟

تجمد البصر، وسابت المفاصل، ودار كل شئ.. وإزاء إصرار «الناظر» اضطر إلى أن يخفف من إنكاره، ويقر باتهام «الناظر» له بأن السرقة كانت دافعه فى قتل «الجبلاوى» ثم فى قتل «سعد الله».. وراح يصفه بأنه رجل خطير.. لأن من يحوز سلاحا مثل سلاحه الذى يهزأ بالنبابيت.. هذا الرجل هو الساحر حقا..

ولكن كيف توصّل «الناظر» إلى سرّه؟ صارحه «قدرى» أن أحد خدمه انضم إلى مطارديه، وكان متأخرا عنهم فلم يصبه أذى زجاجة «عرفة».. ثم تبع الخادم وحده «عرفة» فى هدوء دون أن يشعره بمطاردته الخفية حتى ترك «عرفة» عند الدراسة.. وسارع إلى «الناظر» فأخبره..

أخذت الغيوم تتكشف أمام ناظرى «عرفة» وراح يسأله عن سر الزجاجة، ويتحادث معه بشأنها واعدا إياه بأنه لن يهلك ما دام مطيعا «للناظر»، و«عرفة» يعده بأنه سيكون رهن مشيئته، ولم يخل الحديث من تهديد بأنه يفشى سره ويتركه للناس يرمونه فى بطون الكلاب، وكان طبيعيا أن يطلب من «عرفة» أن يستعدّ بالكثير من الزجاجات.. لأنهما قد تفاهما على القضاء على الفتوات.. وكان ختام الحديث طلبا من «الناظر» إلى «عرفة»:

لا ترهق نفسك بالعمل نظير الملاليم. تفرَّغ لسحرك فى حمايتى. وسيكون لك كل ما تشتهيه نفسك..!

* * *

جلس ثلاثتهم يتحادثون ويتناقشون، ولم يكن خافيا على أى منهم المصير الذى انتهى إليه ثلاثتهم، فقد أصبحوا فى خدمة «الناظر»، بل أسارى عنده. أصبح من المتعذر عليهم الفكاك من قبضته، بل إن الهرب أصبح أمرا فى شبه المستحيل – وإن كان «حنش» يقول:

• من يدرى؟ فقد يلد المستقبل فرصة للنجاة..

ومضى «عرفة» و«حنش» إلى الحجرة الخلفية.. يواصلان العمل فى همة ونشاط.. وكان مما ابتدعه «عرفة» قوله «لحنش»:

ينبغى أن نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية، وأن نسجل صورها فى كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهدنا للضياع أو يكون موتى نذير النهاية لهذه التجارب، ومن ناحية أخرى أرجو أن يكون لديك الاستعداد لتعلم السحر، فما تدرى شيئا عما يخبئه القدر لنا.

ومضيا يتابعان العمل.. والحديث عن الزجاجة التى ترعب الأفئدة.. ويكرّر «عرفة» مقولته بأن ليس للسحر نهاية.

* * *

من فتوة حارتنا؟

مضى الناس يرددون هذا التساؤل منذ وفاة «سعد الله».. وراح كل فريق يزكّى رجله، مبتدعا له مزايا يستمدها من تاريخ من سمى الحى باسمه.. وراح كل شاعر يدعو بالرباب إلى فتوة حيه.. وراحت النسوة تتبادل الشتائم من فوق الأسطح..

وبعث «الناظر» إلى «يوسف» خفية برسول من قبله، فلقيه، وحيّاه، وطلب إليه أن يهدّىء الجو فى حيّه، وبخاصة لأن هذا الحى هو الذى يلى بيت «الناظر»، وذلك على أمل أن يلقاه فى المرة التالية وهو فتوة الحارة.. ولم تمض أيام حتى التقى «السنطورى» و«عجاج» واتفقا فيما بينهما على القضاء على «يوسف»، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى.. وعند فجر اليوم التالى تجمع الرجال من «آل قاسم» ومن «آل رفاعة» فهاجموا حى «آل جبل»، فدارت معركة شديدة أسفرت عن مقتل «يوسف» وأتباعه، وهرب الكثيرون، وأذعن «آل جبل» للقوة يائسين.. وإذ أجريت القرعة، فقد فاز «السنطورى» بالفتونة، وحياة الجميع، بمن فيهم «عجاج» فتوة الرفاعية.. ومن صفوف

الرفاعية تقدم رجل إلى «السنطورى» مفتوح الذراعين ففتح له «السنطورى» ذراعين ليعانقه، لكن الآخر طعنه بسكين فى قلبه بمنتهى القوة والسرعة. سقط «السنطورى» على وجهه – لتوه – قتيلا. وتلاقى الحيان فى معركة دامية لكن لم يكن فى القاسمية من يستطيع الوقوف أمام «عجاج»، فسرعان ما نفذت إلى قلوبهم الهزيمة.. ولم يأت المساء حتى كانت الفتونة قد تقررت «لعجاج»، وانطلقت الزغاريد من حىّ «رفاعة» وراحوا يرقصون حول فتوتهم. وإذا بصوت يرتفع فوق الزغاريد صائحا «هس.. اسمعوا يا غنم» تطلعوا فى عجب.. فرأوا بواب «الناظر» يسير بين يدىّ «الناظر»، الذى جعل يتقدم فى هالة من خدمه.

• مضى «عجاج» نحو موكب «الناظر» وهو يقول:

• محسوبك «عجاج» فتوة الحارة وخادمكم.

• حدجه «الناظر» بنظرة ازدراء، وقال فى الصمت الرهيب الذى غشى الحارة جميعا:

• يا «عجاج»، لا أريد فى الحارة فتوة ولا فتونة!

• ذهل رجال «آل رفاعة».. وتساءل «عجاج» فى دهشة: ماذا يقصد حضرة «الناظر»؟

• فسدد «الناظر» نحوه نظرة قاسية، ولكن الفتوّة تساءل فى تحد:

• ومن ذا يحميك أنت؟

• وإذا بالقوارير تنهال من أيدى الخدم على «عجاج» وأعوانه، ودوّى الانفجارات يزلزل الجدران.. ويصيب الوجوه والأطراف.. ويفجر الدماء.. وانقض الفزع على النفوس.. وتعالى الصوت فى حى «رفاعة»، وزغاريد الشماتة فى حى «آل جبل» و«قاسم».. وتوسط «يونس» – بواب «الناظر» – داعيا الجميع إلى الإنصات حتى ساد الصمت فصاح «يونس»:

• يا أولاد حارتنا جاءكم السعد والأمان بفضل حضرة «الناظر»، أطال الله بقاءه، فلا فتوة يذلّكم أو يغتال أموالكم بعد اليوم.

• وارتفعت أصوات الهتاف إلى السماء..

* * *

انتقل «عرفة» وأسرته إلى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير. بذلك أمر «الناظر» ولا رادّ لأمره، وإن كان حرص على أن ينفذ الأمر بليل. وجدوا أنفسهم كمن هم فى حلم.. ارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة واستنشقوا هواء نقيا، وتشمّموا روائح زكية. وتغيّر الثلاثة

منظرا ولونا ورائحة. ولم يكد يستقر بهم المقام حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء: البواب – الطاهى، البستانى – مربى الطيور، والأخريات للدار.. دهش «عرفة» وسألهم: من أذن لكم بالمجئ؟ وجاءه الجواب: حضرة «الناظر»..

وسرعان ما استدعاه «الناظر»، فذهب إليه من فوره.. قال له «قدرى» لدى جلوسه إلى جواره: سنتقابل كثيرا يا «عرفة» فلا يزعجك استدعائى.. وكان جوابه ببشاشة تخفى ما يملأ صدره من قلق: «سيّدى الخير والبركة» وسأله «الناظر» عمّا إذا كانت الدار قد أعجبته – قال «عرفة» فى حياء: «هى فوق الأحلام» وحدّثه «عرفة» عمّن فوجئ بهم فى بيته. قال له «قدرى» إنهم من رجاله أرسلهم إلى «عرفة» ليخدموه ويحموه.. دهش «عرفة» وتساءل عن حاجته إلى الحماية، قال له «قدرى»: أهل الحارة يقولون فيما بينهم إنك صاحب القوارير السحرية، وأهل الفتوات موتورون كما تعلم، والآخرون يموتون حسدا، لذلك كله فأنت فى خطر محيط.

تجهم وجه «عرفة» وأدرك أنه صار سجين الغضب والمقت.. لكن «قدرى» يستدرك قائلا له ألاّ يخاف فإن رجاله حوله.. ولا تنس أن أهل حارتنا يقولون إن «سعد الله» قتل بالسلاح الذى قتل به «عجاج»، وأن الوسيلة التى تسلّل منها القاتل إلى بيت «سعد الله» هى نفس الوسيلة التى تسلل منها إلى البيت الكبير من قبل. فقاتل «عجاج» و«سعد الله» و«الجبلاوى» شخص واحد هو «عرفة» الساحر..!

وعندما أبدى «عرفة» فزعه قال له «الناظر» فى هدوء: لا تخف ما دمت فى كنفى ومن حولك خدمى.

اقترح «عرفة» على «الناظر» أن يوزع أنصبة الفتوات على الناس حتى يرضى الناس عن «الناظر» وعن «عرفة»، فضحك «قدرى» هادئا متسائلا: وفيم كان القضاء على الفتوات؟ وعاد «الناظر» يوصيه بعدم نسيان السحر، وبالإكثار من القوارير لأنه من الحكمة أن ندخر منها عددا موفورا..

وراحا يتصارحان: «عرفة» و«قدرى»، حتى كشف كلاهما للآخر عما يخاف من صاحبه.. وقد أنهى «الناظر» الحديث بقوله: لا تخف على حياتك منىّ، فسأحرص عليها حرصى على الحياة نفسها، واعلم أن من يغدر منا بصاحبه، فقد غدر بنفسه.

تجهم وجها «عواطف» و«حنش» و«عرفة» يعيد عليهما ما دار.. وبدا أن ثلاثتهم يفتقرون إلى الطمأنينة الحقة فى ظلّ حياتهم الجديدة.. ومع ذلك مضيا فى حياتهم

كما شـاءت الظروف: مضى «عرفة» و«حنش» يعملان معا فى حجرة وراء البهو أعداها للسـحر. ودأب «عرفة» على تسـجيل الرموز التى اصطلحا عليها فى كراسـة لم يعلم بسرها أحد سواهما.

ويوما امتعض «حنش» من هذا العمل الذى لا جدوى منه، وسأل «عرفة» عما يدعوه إلى العمل بهذا الجد كله؟ فكان جواب «عرفة»: لأنه ليس لى إلا أن أعمل..

وأدركت «عواطف» أنها فى سـجن، وأنها سـتعيش حياة كئيبة.. ومرة تأخر «عرفة» فـى بيـت «الناظر» فخطر لها أن تنتظره فى الحديقة.. وطـال بها الانتظار قبل أن تنتبه إلى صوت الباب يفتح.. وهمَّت بأن تذهب للقائه إلا أن خادمة صعدت من البدروم سبقتها للقيـا «عرفـة».. ثم رأت «عواطف» بعينيها «عرفة» والخادمـة يلتحمان وقد أخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر..!

* * *

انفجرت «عواطف».. انقضت على الكائن المتلاحم بقبضتها على رأس «عرفة»، فتراجع ذاهـلا مترنحا حتى اختل توازنه فوقع، ثم أنشـبت أظافرها فى الخادمة وانهالت عليها ضربا.. حتى مزَّق صراخها سكون الليل. قام «عرفة» من سقطته، لكنه لم يجرؤ على الدنوّ مـن المعركـة. جاء «حنش» مهـرولا وفى أعقابه عدد من الخدم، فلمـا عرف الموقف على حقيقته صرف الخدم، وخلـص بين المرأتين حتى استطاع أن يعود «بعواطف» وهى تقذف بسـيل من الشتائم والسـباب.. ومضى «عرفة» مترنحا إلى حيث يطل على الخلاء.. ولحق به «حنش» بعد فترة فاتخذ مجلسه أمامه صامتا..

ملأ الشـك وملأت الريبة صدر «عواطـف».. وامتلأت حياتها بالمخاوف والشـكوك.. وابتدأت تحس أن البيت ليس بيتها، ولا الزوج زوجها. سجن بالنهار وماخور بالليل «ولم يعد هناك «عرفة» الذى أحبته.. إنه اليوم ما هو إلا وغد مثل «قدرى» ومثلما كان «سـعد الله»، والحياة إلى جانبه عذاب مشتعل، وخوف مؤرق».

عاد «عرفة» ذات ليلة من بيت «الناظر» فلم يجد «لعواطف» أثرا، وشـهد البواب أنه رآهـا تغـادر البيت أول الليل، ولم تعد.. فأين ذهبت يا ترى ؟.. وقال لنفسـه: فلأتركها ولأهملها حتى تعود بنفسـها ذليلة! ولكنها لم ترجع، وانقضت عشـرة أيام. فقرر «عرفة»

أن يذهب إلى «أم زنفل».. جارتها القديمة – وتحرّى ألا يشعر بذهابه أحد.. وإن كان قد تبعه خدمان لحراسته وساروا نحو ربع قديم فى حى «أم زنفل». طرق «عرفة» الباب حتى فتح عن «عواطف» نفسها.. فقطبت متراجعة.. وطلب إليها أن ترجع معه، فقالت له: لن أعود إلى سجنك.. وحاول أن يسترضيها بقوله إن لكل رجل زلة.. فكان جوابها إنه هو نفسه زلة ولا كل الزلات.. وأن حياته كلها أخطاء.. وبذل جهدا كبيرا فى محاولة إثنائها عن إصرارها.. فارتدّ عنها يائسا ثم غادر المكان متبوعا بصاحبه والخادمين. وسأله «الناظر» عنها فكان جوابه أنها عنيدة.. وجعل «الناظر» يسأل «عرفة» عمَّا إذا كانت زوجه تعرف شيئا من أسرار عمله، فبادر بقوله إن السحر لا يعرفه إلا الساحر..

* * *

وتوثقت الألفة أكثر بين «قدرى و«عرفة». جعل «قدرى» يدعوه إلى سهراته الخاصة التى تبدأ عادة عند منتصف الليل.. وذكر «عرفة» كلمات «عواطف»، فوجد نفسه يتساءل:

• ألسنا فى سجن يا حضرة «الناظر».

• فقال الآخر بحدة:

• ماذا تريد مادمنا مطوّقين بأناس يمقتوننا؟

• وراحت الأحاديث تمضى إلى مسار أكثر يأسا وإظلاما.. وراح «الناظر» يقول:

• الحياة كما ينبغى وأحسن لا ينقصها شئ، حتى الشباب تعيده الأقراص، ولكن ما جدوى ذلك كله والموت يتبعنا كالظل؟ كيف أنساه وهو يذكرّنى بنفسه كل ساعة؟

• وراح «الناظر» يتمشى مرددا:

• آه يا «عرفة» لو تنجح! أى شئ تفعله لو نجحت؟

• قال «عرفة» كأنما أفلت منه القول:

• أردّ إلى الحياة «الجبلاوى».

• فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال:

• هذا شأن يعنيك بصفتك قاتله!

• فقطب «عرفة» متألما، وغمغم بصوت غير مسموع: «آه لو تنجح يا عرفة!».

* * *

عند الفجر غادر «عرفة» بيت «الناظر» وهو فى عالم مسحور غائم المسموعات والمرئيات، مضى ناحية بيته. وعند منتصف المسافة بين بيته وبيت «الناظر»، وأمام باب البيت الكبير.. اعترضه شبح لم يدر من أين أتى، تقدم منه وهو يقول: صباح الخير يا معلم «عرفة». دهمه خوف لعله من المفاجأة، لكن تابعيه انقضّا على الشبح وأمسكا به، وتفرّس «عرفة» فى الشبح فوضح لعينيه على رغم ذهولهما أنه شبح امرأة سوداء مرتدية جلبابا أسود يلفّها من العنق حتى القدمين. أمر الخادمين بأن يتركاها وسألها عن أمرها قالت له أنها تريد أن تحدثه على انفراد واستحلفته بجدّه الغالى ألا ما سمح لها.. فحدجها وتساءل: أين؟ متى رأى ذلك الوجه؟ وإذا بقلبه يخفق خفقه أعادته إلى كامل وعيه. هذا الوجه الذى رآه على عتبة «الجبلاوى»، وهو مختف وراء المقعد فى الليلة المشئومة! هذه هى خادمة «الجبلاوى» التى كانت تشاركه حجرته! وركبه خوف أفزعه.. وصرف الخادمين وراح يتفرس فى وجهها الأسود الناحل.. وسألها قالت: لا شكوى لى، دائما أردت أن أخلو إليك لأنفّذ وصية. كنت خادمة «الجبلاوى» وقد مات بين يدىّ.. صدّقنى.. فقد اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمه وبغتة احتضر، فسارعت إليه لأسند ظهره المختلج.. وقد جئتك تنفيذا لوصيته. قال لى قبل صعود السّر الإلهى: اذهبى إلى «عرفة» الساحر وأبلغيه عنّى أن جده مات وهو راض عنه واستعادها أكثر من مرة لتعيد على سمعه نص الوصية فأعادتها.. وهى تقول أنها سألت عنه أول ما جاءت، فقالوا إنه عند «الناظر» فلبثت تنتظر. سألها عما إذا كانوا قالوا لها إن «عرفة» قاتل «الجبلاوى» – فقالت بارتياع:

• ما قتل «الجبلاوى» أحد، وما كان فى وسع أحد أن يقتله.. وكل ما عدا ذلك كذب وافتراء..

• لقد مات الرجل بين يدىّ.. وتركته وانصرفت..

• عاد يقص ما حدث على «حنش»، فلم يصدق، بل كذبه، ورد ذلك إلى فقده وعيه، ونصحه بأن ينام، فهو فى حاجة إلى نوم عميق. وحاول «عرفة» أكثر من مرة أن يؤكد «لحنش» صدق روايته فلم يصدّقه.. مؤكدا له أن كل ما هو فى حاجة إليه هو الراحة.. ومازال «حنش» يعرفه حتى أرقده، وأسلم الرأس إلى نوم عميق.

* * *

وعندمـــا نهـــض من نومه أعلن «عرفة» – فى هدوء وتصميـــم – أنه قرر أن يهرب. ومن الطبيعى أن يثير ذلك نقاشـــا مســـتفيضا كان «عرفة» فيه على تصميمه وعلى يقينه الذى عبَّر عنه بقوله:

«هذا السجن لم يعد يمدّنى إلا بأفكار الموت، وكأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا ألحان الموت، وكأنى أشم رائحة القبور فى أصص الأزهار».

وحذره «حنش» من أن الموت نفسه ينتظره فى الحارة فكان جوابه أنه سيهرب بعيدا عن الحارة، وســـيعود يوما لينتصر.. مضيفا أن جدّه أعلن رضاءه عنه على رغم اقتحام «عرفة» بيته وقتله خادمه.. وإن كانت الدهشة قد عاودت «حنش»، الأمر الذى دعا «عرفة» إلى أن يؤكد أن جده «الجبلاوى» مات وهو عنه راض، لم يغضبه الاقتحام ولا القتل. ولو أنه أطلع على حياة «عرفة» الراهنة لما وسعته الدنيا غضبا.. لذلك نبَّه «عرفة» بلطف إلى سابق رضاه. اســـترعى ذلك نظر «حنش» فأبدى تعجبُّه وهو يعلّق بقوله: لم يكن من عادتك أن تتحدث عن جدنا باحترام.. فكان جواب «عرفة» إن ذلك كان فى الزمان الأول وأنا كثير الارتياب. أما وقد مات فحق للميت الاحترام.. وهيهات أن ينســـى أنه هو المتســـبب فى موته، لذلك فعلى «عرفة» أن يعيد إليه الحياة إن استطاع، وإن تيسر النجاح «لعرفة» فلن نعرف الموت!

وراح «عرفة» يضع خطة الهرب: ســـيتلف كل شـــىء إلا الكراسة، فهى كنز للأسرار، وسيجعلها «عرفة» فوق صدره.. وسيرتب مسار الهرب دون عسر.

ومضـــى «عرفـــة» كعادتـــه إلى بيت «الناظر»، وعـــاد قبيل الفجر إلى بيتـــه، فلبث مع «حنش» ريثما اطمأنا إلى نوم الخدم، وتســـلّلا معا إلى الســـلاملك.. ورفع «عرفة» المزلاج، وفتـــح الباب على مهل ثم خرج و«حنش» فى أثره.. وســـارا لصـــق الجدران نحو ربع «أم زنفل» يخترقان ظلمة صامتة.. وأيقظ «عواطف» واصطحبها فى رحلة الهرب طالبا منها أن تترك الملام لحينه.. فلما كاد يصل بامرأته إذ بصغير «حنش» ينبهه وإذا بضجة تترامى.. فارتد يائســـا.. وأشـــار إلى نافذة صغيرة فعلم أنها تطل على المنور فبادر يخرج الكراسة من صدره ويلقيها فى المنور.. وآثر أن يصعد درجات السلم القليلة المؤدية إلى السطح، فترامت إليه ضجة الصاعدين إليه.. وإذا أصوات تطلب إليه أن يســـلم نفســـه – فوقف مستســـلما دون أن ينبـــس بكلمـــة.. انقضوا عليه فطوّقوه.. وفى الحارة رأى رجلين يســـوقان أمامهما «عواطف» – فرجاهما أن يدعوها فلا شأن لها، فكان الجواب لطمة هوت على صدغه.

* * *

أمام «الناظر» الغاضب وقف «عرفة» و«عواطف» مقيدى اليدين إلى ظهريهما، و«الناظر» ينهال لطما على وجه «عرفة» حتى كلّت يداه.. وقالت «عواطف» مستعطفة إن «عرفة» ما جاء إلا ليصافحها. فكان جوابها البصق واللعن.. وحاول «عرفة» أن يبرئها فإذا «بالناظر» يقول إنها شـريكة «عرفة» فى قتل «الجبلاوى» وفى سائر جرائمه.. ثم راح يتوعد «عرفة» بأنـه إذا كان قـد أراد الهرب.. فسـيتولـى «الناظـر» تهريبه من الدنيـا كلّها..! ونادى رجاله فجاءوا بجوالين. دفعوا «عواطف» فسـقطت على وجهها، فسرعان ما قيدوا قدميها وأدخلوها فى الجوال غير آبهين بصراخها.. فاندفع «عرفة» يقول له: «اقتلنا كما تشـاء، سيقتلك الحاقدون غدا» ضحك «الناظر» فى برود وهو يردد أن عنده من القوارير ما يحميه إلى الأبد فصاح «عرفة»: «حنش» هرب، بكل الأسـرار، وسـوف يعود يوما بقوة لا تقاوم فيخلص الحارة من شرّك..

ثم انقض عليه الرجال، وفعلوا به ما فعلوه فى زوجته.. وحملوا الجوالين إلى الخلاء.. وسمع «يونس» وهو يقول: احفروا بسـرعة حتى نعود قبل الصبح.. ثم إذا «بيونس» يقول موجها كلامه إليهما: سيلقى بكما إلى قعر الحفرة ثم يهال عليكما التراب دون أن يمسكما إنسان بسوء!

فصرخـت «عواطف» على رغـم إعيائها، وهتفت أعماق «عرفـة» بلغة لم يدرها أحد، وحملتهما أيد شديدة، ثم رمت بهما إلى قعر الحفرة، فانهال التراب، وارتفع التراب فى الغسق..!

* * *

انتشر خبر «عرفة» فى الحارة. لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية.. وذاع القول إن «عرفة» قتل بنفس السلاح السحرى الذى قتل به «سعد الله» و«الجبلاوى».. وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم «للناظر»، وكثر الشامتون من أهل الفتوات وأنصارهم.. وبدا المستقبل قاتما أشـدّ قتامة مما كان بعد أن تركزت السـلطة فى يد واحدة قاسـية.. وبدا أنهم لم يبق لهم إلا الخضوع.

ويومـا اعترض رجـل «أم زنفل» فى طريقها إلى بعض شـأنها، فحيّاها، واسـتوقفها وحياهـا، فرمقته بنظـرة متفحصة فما عتمت أن قالت بدهشـة «حنـش»، فاقترب منها

وســألها: ألم يترك المرحوم شيئا فى مســكنك ليلة القبض عليه؟ قالت إنه لم يترك شيئا! ولكنها رأته يرمى بأوراق إلى المنور، وذكرت أنها تســللت إلى المنور فى نهار اليوم التالى، فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فايدة منها ولا عايدة فتركتها ورجعت. التمعت عينا «حنش» بنور عجيب وطلب إليها أن تعينه حتى يجد الكراســة، فأجفلت العجوز وطلبت إليه أن يدعها لحالها، فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فزعها وواعدها آخر الليل بعد أن تنام العيون. وفى الموعد المضروب تســلّل بإرشــادها إلى أســفل المنور وأشعل شمعة وراح يبحث وصعد إلى «أم زنفل» يائســاً لأنه لم يجد شيئا.. واستمرّ يحادثها إلى أن قالت له بغيظ للتخلص منه بأن يفتش عنها فى مســتوقد الصالحية فلابد أن الزبال أخذها ضمن الزبالة التى يذهب بها إلى المستوقد.. فذهب «حنش».. وسأل عن زبال حارة «الجبلاوى»، فسأله عما يبحث عنه.. ما هو.. فلما عرف أن البحث عن كراسة قال «لحنش» وهو يشير إلى ركن فى الحجرة الملاصقة للحمام: ابحث.. إنت وحظك، فإما أن تجدها عندك، وإما أن تكون فى النار..

ومضــى «حنــش» يفتش فى الزبالة بصبر وأمل. لم يبق لــه من أمل فى الحياة إلا تلك الكراسة فهى أمله وأمل الحارة. قتل «عرفة» السيىء الحظ، فهذه الكراسة جديرة بإصلاح أخطائه والقضاء علىأعدائه وبعث الآمال فى الحارة المتجهمة.

جاء الزبال يســأله عمَّا إذا كان قد عثر على مطلوبه، فاســتمهله بعض الوقت. والزبال يسأل عن أهمية تلك الكراسة، فقال «حنش» إن فيها حسابات المحل وستراها بنفسك.

وواصل بحثه على رغم تزايد مخاوفه علىأثر رؤية «شــنكل» بياع الفول له عندما جاء ليتســلم قدرة الفول الخاصة به.. ارتعدت فرائص «حنش».. لخوفه من أن يكون «شــنكل» قد لمحه.. فهل يهرب على الفور؟ كيف ومازال يبحث.. وعلى كل فقد استمر فى بحثه..

عــاد «شــنكل» إلى الحارة ليخبر كل من صادفه عن رؤيتــه «لحنش» رفيق «عرفة» فى مستوقد الصالحية مكبا على التفتيش فى الزبالة عن كراسة كما أخبره الزبال.. وما إن بلغ الخبر بيت «الناظر» حتى سارعت قوة من الخدم إلى المستوقد، لكن القوة لم تجد «لحنش» أثــرا.. وكان مــا قاله الزبال أنه ذهب لبعض حاجته ثم لم يعد ولا يدرى الزبال ما إذا كان عثر على ضالته أم لا.

ولا يـدرى أحـد كيف أخذ الناس يتهامسـون فيما بينهم بأنها الكراسـة التى أودعها «عرفة» أسرار فنونه وأسلحته، وأنها ضاعت فى أثناء محاولته الهرب، فحملت فى الزبالة إلى مستوقد الصالحية حيث عثر عليها «حنش».. وانتشرت الأخبار بأن «حنش» سيتم ما بدأه «عرفة» ثم يعود إلى الحارة لينتقم من «الناظر» شر انتقام، وأكدت الأقوال والظنون أن «الناظـر» وعـد من يجيئه «بحنش» بمكافأة كبيرة فلم يعد أحد يشـك فى الدور المنتظر أن يلعبه «حنش» فى حياتهم، وارتفعت فى الأنفس موجة استبشار وتفاؤل طفت على القنوط والخنـوع. بل وامتلأت القلوب عطفا على «حنش» فى مهجره المجهول، بل امتد العطف إلى ذكـرى «عرفة» نفسـه، وتمنّى الناس لو يتعاونون مع «حنـش» فى موقفه من «الناظر» لعلّهم يحرزون بانتصاره عليه نصرا لهم، وللحارة، ودعوة لحياة الخير والعدالة والسلام.. وإذ نما ما يتهامس به الناس إلى سمع «الناظر»، فقد أوحى إلى شـعراء المقاهى بأن يتغنوا بقصـة «الجبلاوى»، وبخاصة مقتلـه بيد «عرفة» وكيف أن «الناظـر» اضطر إلى مهادنته ومصادقته خوفا من سحره حتى تمكّن منه فقتله انتقاما للجد الكبير.

ومن عجب أن الناس تلقوا أكاذيب الرباب بفتور وسـخرية.. وقالوا.. لا شـأن لنا بالماضـى، ولا أمل لنا إلا فى سـحر «عرفـة».. ويوما بعد يوم مضـت حقيقة «عرفة» تتكشـف للناس.. وعرف الناس الرجل وما كان ينشده من وراء سحره للحارة من حياة عجيبة.. ووقعت الحقيقة من أنفسـهم موقع العجـب، فأكبروا ذكراه، بل وأنكروا أن يكون هو قاتل «الجبلاوى»..

وحدث أن أخذ بعض الشـباب من حارتنـا يختفون تباعا.. وقيل فى تعليل ذلك أنهم اهتدوا إلى مكان «حنش»، وأنه يعلّمهم السـحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود. واستحوذ الخـوف على «الناظر» ورجاله، فبثوا العيون فى الأركان، وفتشـوا المسـاكن والدكاكين.. حتى باتت الحارة فى جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب.. ولكن الناس تحمّلوا البغى فى جلد، ولاذوا بالصبر، واستمسكوا بالأمل، وكانوا كلّما أضرَّبهم العسف قالوا:

لابـد للظلم من آخـر، ولليل من نهار، ولترين فى حارتنا مصرع الطغيان، ومشـرق النور والعجائب.

* * *

ختـــام:

ذلك ملخص أمين لهذه الرواية المجهدة، وقد حرصنا على أن نضمنه كل الحوادث ذات الأثـــر، وجميع الحوارات التى تتصل بما يريد المؤلف أن يكشـــف عنه من أفكار، ومن هنا طال بعض الشيء. وبخاصة لأننا اضطررنا فى كثير من الأحيان – فى بعض الواضع – أن ننقل النص الأصلى حيث أننا وجدناه أكثر دقة فى التعبير.

وكما أشـــرنا من قبل، فقد أثار ظهور هذه الرواية زوابع ما زالت ثائرة حتى اليوم. وقد جعلنا همَّنا أن نحصى هذه الزوابع ونعرضها لأنها تضمنت أحكاما باتة ونهائية بشأن تلك الرواية، ووجدنا أنه مما يحسن بنا أن نعرض للأمر بشيء من التفصيل والدراسة والتحليل فـــى فصول هـــذا المؤلف الذى يتخذ من هـــذا الفصل ركيزة لما ورد قبله ولمـــا يرد بعده من مقولات. على أن لنا كلمة بشأن هذا العمل الفنى يهمنا أن نبديها فيما يلـــى:

* * *

(٦)
ولنـــا.. كلمـــة

هذه الرواية..

• وقد جاوزت صفحاتها الخمسمائة صفحة..

وقد تعددت مراحلها، ولكل مرحلة ملامحها، وشـــخصياتها وأحداثها التى تميزها عن مرحلة أو مراحل سبقتها، وعن مرحلة أو مراحل أخرى تأتى بعدها.

وبقـــدر ما كان هناك تعدد مراحل وأشـــخاص كان هناك أيضا تعـــدد أفكار، ومناهج، وفلسفات، وأهداف.. فضلا عن تعدد الوسائل والأساليب..

والواقـــع أنهـــا وإن كانت رواية متصلة، ومتواصلة يســـلم كل جزء منها إلى ما يليه فى سلاسة وبساطة وعلى نحو طبيعى، إلا أن ذلك لا يحول دون الشعور بأنك تعايش أكثر من عالم، وتعيش أكثر من حياة.

بل إن كل شخصية من شخصياتها المميزة لتشعرك وأنت فى صحبتها بأنك فى مواجهة عالم بأسره يتفرد بملامحه، ويتميز بمعالمه، ويمضى مشعا بأنواره، فتستجيب له الحياة، بل ويستجيب له القدر، إلى أن يقضى صاحب الأمر قضاءه الأخير بشأنه.

عالم، بل عوالم وحياة بل حيوات، تجمع بين مختلف الحوادث والأحداث، وتحكى عن كل ما جرى - وتداول - على ظهر البسيطة من أمور، وما شهدته من أحوال وتقلبات، وكل ما مرّ بدنيانا من تجارب، وبما زوّدت به أبناءها من خبرات، ومعارف، وقدرات..

وهى عوالم غير ثابتة، بل دائمة الحركة، محتدمة الصراع، لا تركن إلى الهدوء، أو تقنع بالسكون، فالأشواق تدفع دائما «أولاد حارتنا» والأحلام تحركهم، والحاجة تستثيرهم، ولهم من أفئدتهم ما يبث فيهم الحياة، وينفث الشجاعة، فيكون اقتحام العقبات أمرا ميسورا، والكثرة تغلب الشجاعة، وبالتدبير يمكن التغلب على القوة، وبلوغ أقصى المرام..

ولكن الأمور ما تلبث أن تعود سيرتها الأولى، فإذا الفقراء يزدادون فقرا، ومذلة، وإذا بالطغاة يسترجعون طغيانهم وجبروتهم ويعودون إلى ما كانوا عليه من بغى وطغيان..

ومع ذلك فلا شىء يدوم، وكل قائم يمضى إلى زوال، وذليل اليوم هو سيد الغد، ليعود من بعد إلى أسوأ مما كان فيه، والحياة تدور وتتقلب.. وشاعر الرباب هو الوحيد الذى يحتفظ بالتاريخ ليرويه حكايات فيها العبرة، وملؤها الموعظة، وهى حكايات لا تتحدث عن ماض انقضى وانتهى أمره، ولكنها تبشر بغد يملأ الأحلام و«يحيى» النفوس..

* * *

وعلى ذلك فالرواية تحكى عن صراع الأجيال، وهو صراع حول تحقيق العدالة بين..... الجميع، والحصول على الحق فى مساواة لا تفرق بين الناس بعضهم والبعض الآخر، وهو صراع متصل، مستمر على مدى دهور، فهى تروى قصته، وتحكى تفاصيله، وتتحدث عن أبطاله وصراعاتهم وجهودهم وجهادهم لتحقيق الأهداف النبيلة، وأهمها ألا يكون لإنسان فضل على آخر إلا بالجهد والعمل.

ومن هنا كان عجيبا أن يتوقف البعض إزاء بعض الملامح فى السيرة أو فى النشأة، أو فى الجهات التى يمكن أن يلمسها القارىء بين أبطال تلك الرواية، وبين الأنبياء الثلاثة،

وليت التوقف كان ينتهى عند ملاحظة أوجه الشبه مع إدراك أوجه الخلاف أيضا.. إذ ما أسرع ما يثور التساؤل: لم غيرَّ المؤلف من الأحداث؟ كيف لم يلتزم بما هو ثابت بالنسبة لتلك السير المقدسة؟ وكيف يجيز لنفسه أن يحرِّف أو يغيِّر أو يبدِّل؟ وكيف يجرى على ألسنتهم كلاما لم يرد فى كتاب، ولم يسجله تاريخ؟

وجهل هؤلاء البعض – أو تجاهلوا – أنهم بصدد رواية إبداعية، أو عمل فنى روائى، هو أبعد ما يكون عن أن يكون تاريخا، أو يكون قصصا دينيا، وهو عمل إبداعى قائم على الأسس الفنية وحدها، وإن كان مبدعه قد لجأ إلى الرمز، وكان ذلك ليثرى العمل وليس ليقيده.. بل وقد فتح له الرمز مجالا كثيرا ليطوِّر الأحداث، وليدع لها الفرص للتنامى والتشعب، وليضفى على العمل مزيدا من المصداقية، بما يجعله قريبا من القلوب، مرتبطا بما يحس به الناس من متاعب، وما يعانون من مشاق، وما يضعون لأنفسهم من أحلام.. فهؤلاء الأبطال المصلحون إن كانت فى سيرهم بعض المشابة من سير الأنبياء إلا أنها ليست سوى النذر اليسير، وهو الجانب الصالح جانب القدوة، وفيما عداه فهم بشر من البشر يتصرفون كما يتصرف أبناء هذه الحياة، فليكن فى بعض تلك المشابة نوع من اتخاذ القدوة، أو اقتفاء آثار أصحاب الرسالات.. وتلك أمور هى بعض خصائص التدين، وبعض سمات أهل الكتب السماوية، التى قضت بأن تكون حياة الأنبياء قدوة ومثلا لعباد الله الطيبين.. وهى قدوة نهتدى بنورها، ونستمد منها الهداية، والعزم، ولا بأس من أن نقع فى الخطأ، ثم نعدل عنه ونمضى فى طريق مستقيم، وغايتنا إسعاد الآخرين، ودحر الظلم والعسف.. وإقامة العدل والمساواة.. والحرية، والأمان فهذه هى غاية الحياة.. أسمى حياة..

و إننى لأعجب ممن يدع ما يجده فى متابعة هذا العمل الفنى من متعة كبيرة، ومن مضى مع ما يوحى به من مثُل، ومع ما يفتحه من مجالات للفكر، ومجالات للتقدير ليشغل نفسه: من الشخصية التاريخية التى يمثلها هذا البطل؟ ولم لم يلتزم المؤلف بما هو ثابت بشأن سيرة حياة تلك الشخصية..؟ ولم.؟ ولم.؟ إلى آخر ما هنالك من أسئلة مماثلة إن كان هناك لها آخر، أو كان لذلك نهاية..؟؟

بينما أنه بذلك يكلفّ نفسه شططا، ويجهدها أيما إجهاد، ثم لا يجنى من وراء ذلك ثمرة ما.. بل يعود من رحلته متقطع الأنفاس، مكتئب النفس، سوداوى النظرة، ويحمل فوق رأسه هموم الدنيا كلها..

ولو أنه تدبر الأمر فى بساطة، وأخذ الأمور على حقيقتها، ولم يساير أصحاب الأوهام، والأفكار الزائفة، لجنى حلاوة العمل الفنى ولو جد فى صفحاته لذة ومتاعا، ولخرج منه بغذاء روحى يفيض على النفس راحة، وعلى القلب بهجة وسرورا ثم يرتفع بالفكر إلى أرقى مستوى.. فما غاية البشرية منذ الأزل، وما هى أقصى أمانيها؟ أليس تحقيق العدل والحرية والمساواة – وتلك هى سمات الديمقراطية التى نكثر من التغنى بها – وسوف يجد أن تلك الغاية هى ما تهدف إليه الرواية منذ مطلعها حتى كلمات الختام فيها..

* * *

على أن ما ينبغى أن يلفتنا ما قامت عليه الرواية من رموز، وما رمت إليه من أهداف، وما أثارته من إشكالات، عما قام عليه بناؤها الفنى من أسس إبداعية رائعة وما عمرت به صفحاتها من عرض شيّق، وسرد جذاب، وحوارات رقيقة موحية.. كل ذلك قد صيغ فى أسلوب سلس جميل، اختيرت عباراته – بل كل كلمة من كلماته – فى غاية الدقة والإحكام لتعبر عن المعنى المراد بها أصدق تعبير، حتى ليتمثل قارئها ما تعبّر عنه من مشاعر، أو ما تصفه من أحاسيس، أو ما ترويه من حوادث، أو ما تعبّر عنه من أفكار وآراء كأن هناك من يأخذ بيده، ويعرض عليه، بل ويحدثه حديثا يصل إلى القلب مباشرة بكل ما تقصد الرواية حكايته.. فكأن قارئها لا نقول يعايشها، بل نؤكد أنه يتلبس بها، حتى إنه لينتقل إلى «الحارة» ليصبح واحدا من أبنائها، يشاركهم حياتهم، ومعيشتهم، يفرح لما يفرحون، ويألم لما يألمون.. بل ويغلق صفحات الكتاب ليفكر معهم – فيما يمرون به من مشاكل، وما يلقون من أحداث، وقد أصبح كل همه أن ينتصر لهم، أو ينتصر معهم، وأن يظل فى صحبتهم إلى أن يشرق عليه وعليهم صباح الغد المشرق الجميل..

* * *

والرأى عندى أننا لسنا بصدد رواية تقرأ ثم تطوى، بل نحن بصدد حياة ناطقة ملموسة، فياضة بالحركة، وهاجة بتصارع الأفكار.. حتى يتعذر على قارئها أن يبتعد عن تلك الحياة حتى وإن أنهى القراءة، وأغلق الكتاب، إذ تظل الأحداث أمام عينيه وتظل

الحوارات تتردد على مسامعه، والأفكار والصراعات تغلى وتفور وتتصارع.. وشاعر الرباب يأتى عزفه وغناؤه وإنشـــاده عن بعد كخلفية للأحـــداث، ولحن للرواية.. «فأولاد حارتنا» ليست رواية كسواها من الروايات، بل هى فى الواقع حياة جديدة متجددة، عشناها نحن القراء معيشـــة حقيقية، ذقنا مرَّها ونعمنا بخيراتها.. وتألمنا لوقع «ضربات» النبابيت على ظهورنا.. ولكننا رحنا نهتف هتاف النصر عندما اندحر الطغاة..

فهـــى روايـــة تقرؤها مرة لتظل ملازما لها ما حييت، وأؤكد لك أنها لن تفارقك ما حييت..

أنا هنا أعبِّر عن إحساسى الشخصى الذى ما أحسبه إلا إحساس كل قارىء.. وأنا هنا أدع آراء النقاد، من أصحاب المقامات العالية فى النقد، لأننى هنا فى كلمتى إنما أخاطب من يشاركنى متعة القراءة «الحرة» دون تقيدّ بمذهب، سوى الانطلاق نحو الخير، والحب، والفن، والجمال.. فى حرية مطلقة وإخلاص كبير..

أما أســـاتذتنا النقاد فســـيأتى دورهم فى هذه الصفحات، فى موضع تال بعد أن أرضى نفسى، وأروى ظمئى، وأعبِّر عن رأيى – وعن رأيك – فى سماحة، فبذلك نتهيأ لنتقبل مـــا ســـوف نقدم من وجهات نظر متباينة، هى فى مقـــام الأحكام النهائية – التى لا تقبل بالنسبة لصاحبها نقضا ولا إبراما..

وكأننا بذلك نريد أن نقول إن الحياة تتســـع للجميع والســـاحة تقبل العديد من الآراء، و«الأحكام» وليس لأحد منا أن يدعى أنه هو وحده الذى اهتدى إلى الحق دون سواه..!

* * *